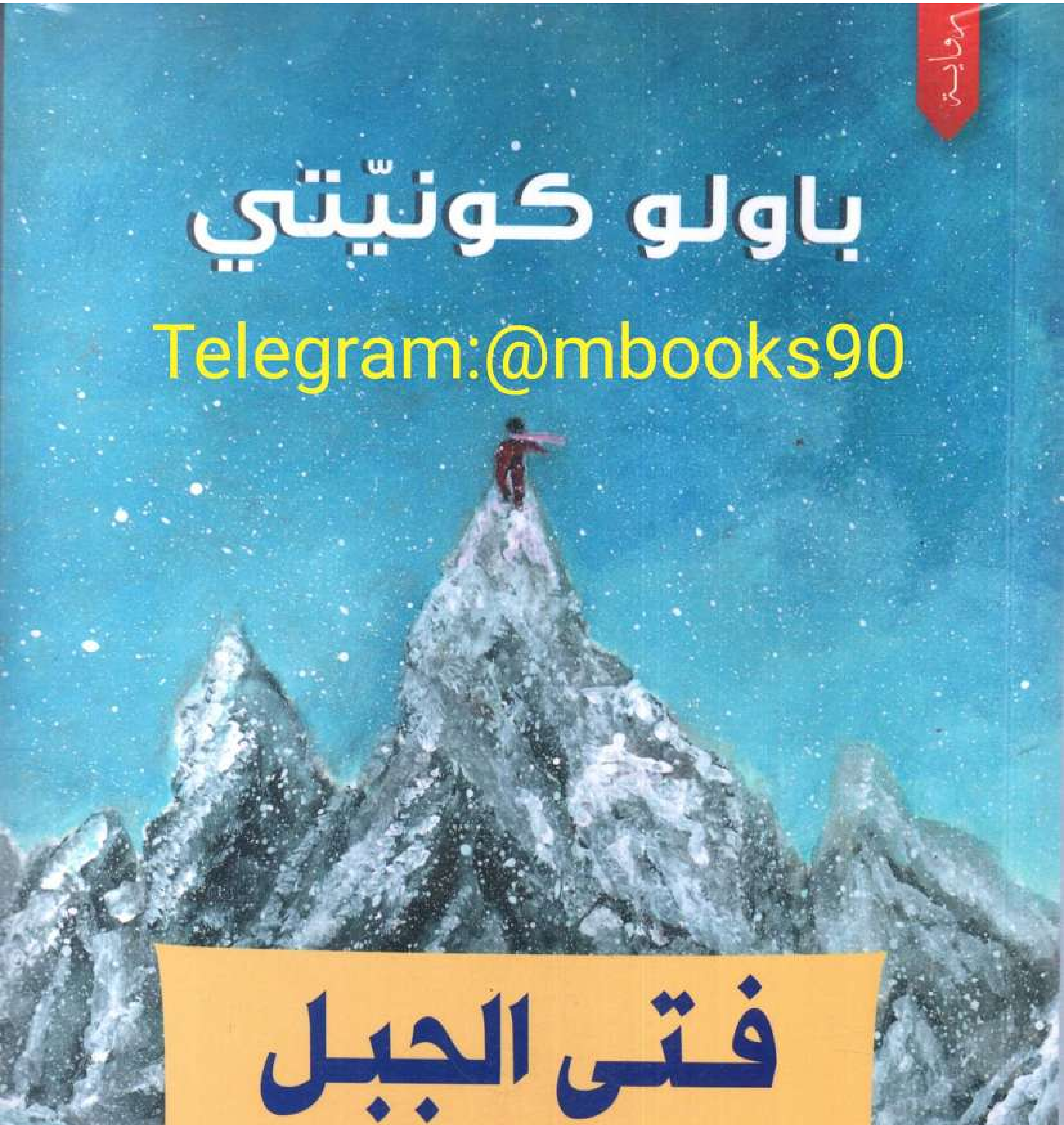

رواية

باولو كونّيتي

Telegram:@mbooks90

فتى الجبل

Il ragazzo selvatico

Quaderno di montagna

ترجمة: د. أماني فوزي حبشي

دار الخيال

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

باولو كونيّتي

فتى الجبل

رواية

دارالخيال للطباعة والنشر والتوزيع

جميع الحقوق محفوظة©

Page 2 / 174 الشتاء فصل النعاس

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

هذا الكتاب لجابريله وريميجو،

معلمّي في الجبل

وتذكارًا لكريس ماكاندليس (1)
الروح المرشدة

(1) Chris McCandle: كريستوفر جونسن مكاندلس (١٩٦٨-١٩٩٢) مغامر أمريكي سافر إلى البرية في ألاسكا ومعه القليل من الطعام والمعدات، أملًا في أن يعيش منعزلًا لفترة. عُثر عليه بعض بضعة أشهر ميتًا. البعض يفترض أن ذلك حدث جراء تسمم، بعد أكل نبات سام، والبعض الآخر يعتقد أنه مات جوعًا.

Telegram:@mbooks90

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

في نهاية اليوم الذي يعيش

في ما وراء أشجار الصنوبر،

سرت على حقول وجبال النور

عبرت البحيرات الميتة - وهمست لي الأمواج السجينة

بأغنية سرية

عبرت فوق أنهار بيضاء، وأنا أنادي

الجنطيانات الهادئة، باسمها-

حلمت يحيطني الثلج بمدينة

ضخمة من الزهور المدفونة-

كنت على الجبال

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

مثل زهرة خشنة -

أنظر إلى الصخور،

والمنحدرات العالية

لبحار الريح

أغني لنفسي عن صيف بعيد،

اشتعل بشجيراته الوردية المُرة

في دمي

أنطونيا بوتزي، حقول الثلج

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الشتاء

فصل النعاس

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

في المدينة

منذ بضعة أعوام مررت بشتاء صعب. الآن لا يبدو لي مهمًّا تذكر مصدر ذلك الألم. كان عمري ثلاثين عامًا، وكنت أشعر بأنني منهك القوى، ضائع وفاقد للثقة، تمامًا كمن انتهى مشروع آمن به بطريقة بائسة. في تلك اللحظة كان تخيل المستقبل يبدو لي افتراضًا بعيدًا، كأن ينطلق المرء في رحلة وهو مريض والأمطار تتساقط في الخارج. منحت الكثير، وماذا جنيت في المقابل؟

أقضي وقتي بين المكتبات ومحلات الخردوات، والبار الواقع أمام منزلي والفراش، لأتأمل سماء ميلانو البيضاء من النافذة. والأهم أنني لم أكن أكتب، وهو الذي بالنسبة إليّ كأنني لا أنام ولا آكل، عشت فراغًا لم أختبره قط.

في تلك الأشهر كانت الروايات تنبذني، ولكنني كنت منجذبًا نحو قصص أشخاص حاولوا، رفضًا للعالَم، أن يعيشوا خبرات توحد في الغابات. قرأت والدن لهنرزي ديفيد ثورو(2)،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وقصة جبل، ليليزى ريكلوس(3)، ولمستني بصفة خاصّة رحلة كريس ماكنديليس، التي قصها جون كراكور في رواية «إلى البرية»(4). ربما لأن كريس لم يكُن فيلسوفًا في القرن التاسع عشر، ولكن مجرد صبي معاصر لي، ترك في سن الثانية والعشرين مدينته وعائلته، ودراسته، ومستقبله الباهر، حسب مفهوم أعراف المجتمع الغربي، وذهب وحيدًا في ترحال انتهى به في ألاسكا، وبالموت جوعًا. عندما اشتهرت القصة، حكم عديد من الأشخاص على اختياره بأنه ذو نزعة مثالية، هروب من الواقع، ولكن به بعضًا من الميل الانتحاري. كنت أشعر بأنني أفهم هذا الاختيار وبداخلي معجب به. لم يسمح الزمن لكريس بأن يؤلف كتابًا، ربما لم تكُن لديه حتى النية ليفعل ذلك، ولكنه كان يحب ثورو، وتبنى أيضًا المانيفستو الخاص به: «ذهبت إلى الغابات لأنني أردت أن أعيش وفقًا لمبادئي، لأواجه بمفردي الأحداث الأساسية في الحياة، لأرى إذا كنت أستطيع أن أتعلم كم لديها لتعلمني، ولكي لا أكتشف، ساعة موتي، أنني لم أعِش. لا أريد أن أعيش ما ليس بحياة، ولا أن أمارس نوعًا من الاستسلام قبل الأوان. أريد أن أعيش بعمق وأن أمتص كل نخاع الحياة، أن أعيش بطريقة جسور وقاسية وأن أدمر كل ما ليس بحياة، أقطعه بعيدًا

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بضربات واسعة قريبة جدًّا من التربة، وأن أغلق الحياة في زاوية وأحولها إلى أدق معانٍ لها. وإذا كشفت عن بؤسها، أريد أن أنزع منها كل البؤس الأصلي، وأطلعها على العالَم، ولكن إذا كشفت عن عظمة، فأنا أريد أن أعرفها بالخبرة، وأكشف عنها في حكاياتي».

لم أكن قد عدت إلى الجبل منذ عشرة أعوام. حتى أعوامي العشرين كنت قد قضيت هناك كل إجازاتي الصيفية. بالنسبة إلى طفل من المدينة- تربى في شقة، وكبر في حي لم يكُن بإمكانه فيه أن ينزل إلى الردهة أو الشارع، مثَّل الجبل الفكرة المُطلقة عن الحرية. كنت قد تعلمت أن أتحرك هناك فوق، في البداية ببدائية، ثم بطريقة طبيعية جدًّا، مثل كل الأطفال الذين يتعلمون السباحة، لأن أحد الكبار قد ألقى بهم في المياه، ففي سن الثامنة أو التاسعة كنت قد بدأت أدعس الجليد، وأضع يديّ على الصخر، وسرعان ما شعرت بأنني على طبيعتي وأنا أسير على المدقات أكثر من شوارع مدينتي. لمدة عشرة أشهر في السنة كنت مُجبرًا على الملابس الجيدة، والنِّظام السلطوي والأنظمة التي يجب طاعتها، وفي الجبل كنت أتخلص من كل شيء، وأحرر طبيعتي. كانت حرية مختلفة عن حرية من

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

يسافر ويقابل أشخاصا، أو يقضي ليلته في الشرب، أو يغني ويغازل النساء، أو من يعثر لنفسه على رفاق معهم ينطلق في اكتشافات عظيمة. إنها كلها حريات أقدرها، إلا أنني في سن العشرين بدت لي أهمية أن أكتشفها في العمق، ولكن في الثلاثين كنت قد نسيت، تقريباً، كيف كان المكوث وحيداً في الغابة، أو شعوري بأن ألقي بنفسي في جدول مياه، أو أن أجري على طرف قمة جبل بعدها لا يوجد سوى السماء. تلك الأشياء فعلتها وكانت أسعد ذكرياتي. بدا لي الشاب المدني الذي أصبحته التناقض التام لذلك الفتى البري، هكذا وُلدت بداخلي الرغبة في أن أذهب للبحث عنه. لم يكُن احتياجاً إلى الرحيل بقدر ما كان احتياجاً إلى العودة، ليس لأن أكتشف الجزء المجهول في شخصيتي ولكن للعثور على جزء قديم وعميق، أشعر بأنني فقدته.

***

ادخرت بعض المال، الضروري لأعيش بضعة أشهر بلا عمل. بحثت عن منزل بعيد عن المناطق المسكونة، وعلى أعلى ارتفاع ممكن. لم تكُن هناك مساحات برية كثيرة على جبال الألب، ولكنني لم أحتَج إلى ألاسكا لكي أعيشَ الخبرة التي أتمناها.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وفي الربيع عثرت على المكان المناسب في الوادي المجاور لذلك الذي كبرت فيه: كوخ من الخشب والحجارة على ارتفاع ألف وتسعمائة متر، حيث تمنح الغابات الصنوبرية الأخيرة طريقًا للمراعي الصيفية. مكان لم أذهب إليه قط، ولكن منظر أعرفه جيدًا، لم يكُن سوى الجهة الأخرى من الجبال التي كنت أطؤها وأنا صبي. مكان يوجد على بُعد عشرات الكيلومترات من أقرب بلدة له، وعلى بعد دقائق من قرية تعج بالسكان في الصيف والشتاء، ولكن في الخامس والعشرين من أبريل، عندما وصلت، لم يكُن هناك أحد. ما زالت المراعي في حالة سبات، تصبغها الألوان البنية والصفراء القاتمة نتيجة ذوبان الثلوج، وما زال الثلج يغطي المنحدرات الجبلية الواقعة في الظل. تركت السيارة في نهاية الطريق الأسفلتي. حملت حقيبتي على ظهري وسرت في طريق البغال، وأنا أصعد وسط غابة ثم مرعى يغطيه الثلج حتى مجموعة من أطلال أكواخ، فيما عدا ذلك الذي أُعيد بناؤه واستأجرته. عندما وصلت إلى الباب تلفت حولي، لم يكُن هناك أي شيء سوى الغابة والمراعي وتلك الأطلال المهجورة، وهناك في الأفق الجبال التي تغلق فال داوستا(5) من الجنوب، تجاه جران باراديسو(6)، ثم نافورة محفورة في جذع شجرة، وبقايا جدارٍ جاف، ومجرى مياه

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

يبقبق. سيكون هذا عالَمي لفترة لم أحددها بعد، لأنني كنت أشعر بالبرد، كان لا بد أن أرتدي سترتي وأشعل النيران، وهكذا دفعت الباب ودخلت منزلي الجديد.

(2) Walden, Henry David Thoreau

(3) Storia di una Montagna Élisée Reclus

(4) Into the Wild, Jon Krakauer

(5) Val d 'Aosta

(6) Gran Paradiso

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الربيع
فصل الوحدة والتأملات

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

مساكن

يبعث فتح كوخ في فترة الربيع على الانفعال. فتحت أبواب الغرف التي ظلت مغلقة لشهور، حيث كان الصقيع المالك الوحيد، وكوى السقف يغطيها الثلج. مررت إصبعي على المائدة والمقعد وخزانة المطبخ، التي كانت تقبع فوقها طبقة من التراب، مثل الرماد المنسي في المدفأة. هل يا ترى للمنازل طريقة ما لتشعر بمرور الزمن؟ أو الشتاء بالنسبة إليها مثل لحظة؟ فكرت في اليوم الذي فيه، منذ عشرة أعوام، خرجت للمرة الأخيرة من باب آخر، وأنا ألقي بنظرة طويلة على كل شيء. الآن حاسة العودة لم تكُن هي النظر بل الشم، كانت رائحة الراتينج هي ما طمأنتني أنني عدت من جديد إلى مسكني. سألته: هل كان الشتاء قاسياً؟ تخيلته يئن ويصرصر في ليالي يناير، عندما كانت الحرارة هناك فوق تصل إلى ٢٠ درجة تحت الصفر، ثم يستمتع بشمس مارس الشاحبة، والجدران الدافئة والثلج الذي يقطر في المزاريب. إذا كان الهدف من المنزل أن يسكنه أحدهم، فكرت، ربما يشعر بشكل ما من السعادة عندما يشعر من جديد برجل يسير ذهاباً وإياباً يحمل

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الحطب، ويشعل المدفأة، ويغسل يديه في المطبخ. وهكذا تلك المياه التي صنعتها الثلوج والصخور تبدأ من جديد في أن تسيل في الجدران مثل عصارة شجرةٍ، والنيران تدور كالدماء في الجسد.

في قصة أحبها كثيرًا، عنوانها منازلي الأربعة، فيها يسترجع ماريو ريغوني سترن (7) مراحل حياته من خلال المنازل التي سكنها. لم تكُن جميعها منازل فعلية، كان يسكن منزلًا متخيلًا أيضًا، أو استعاره من ذاكرةِ آخَر. المنزل الأول كان منزلًا مفقودًا: المسكن التاريخي لسترن، منزل قديم عمره أربعمائة عام، دمرته الحرب الكبرى. ماريو، المولود عام ١٩٢١، كان يعرفه بفضل حكايات الشيوخ، كان المكان الذي كان يندم أنه لم يولد فيه، كان الصلة بين عائلته وأرضه، معنى الوطن الذي لا تمثله الأمة، في قاموس متسلقي الجبال، ولكن تمثله أسماء الأشياء والأماكن، الأعمال الموسمية والطريقة الصحيحة في إنجازها. المنزل الثاني كان منزلًا حقيقيًّا، منزل الطفولة، يمتلئ بالزوايا السرية مثل المنازل التي عشنا فيها كأطفال. المنزل الثالث كان منزلًا ذهنيًّا: ففي أثناء وجوده في المعتقل عام ١٩٤٥، عثر ماريو على ورقة وقلم وقضى أيامًا طويلة من الجوع

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وهو يخطط مشروع كوخ. تخيله في بقعة جبلية حيث يمكنه أن يعيش على الصيد، والكتب والوحدة، ليعالج نفسه من الحرب مثل نيك آدمز شخصيَّة همنغواي في روايته النهر الكبير ذو القلبين (8). وأنقذه ذلك التخطيط لفترة طويلة من اليأس.
وكان المنزل الرابع هو المنزل الذي بناه بالفعل، والذي فيه عاش خمسين عامًا، الغابة في مواجهة النافذة، وخلايا النحل، والمراعي التي عليها ترعى الأيائل، البستان وسقيفة الحطب، «مع زوجتي وكتبي، لوحاتي ونبيذي، وذكرياتي».

أتخيل أن الحياة في مكان صنعه المرء بيديه تمنح سلامًا رائعًا. لم يكُن لديَّ هذا الامتياز، فالكوخ الذي أسكنه بناه رجال الجبل، من يدري متى، ليسع الماشية والرجال في أثناء فصل الرعي الجبلي، وأعيد بناؤه بكل ما فيه من وسائل الراحة منذ عشر سنوات تقريبًا. كان منزلًا من غرفتين فقط، في أسفل حيث كانت توجد الحظيرة، يوجد الآن الحمام وغرفة النوم بها خزانة وأدراج ومدفأة وفي أعلى المطبخ والأريكة، ومائدة ومصطبتان ومقعد. ولكن الجدران من الحجارة الطبيعية لم تتغير منذ وقت بنائه، وعند لمسها كنت أسأل نفسي كم من الأيادي ربتت عليها وكم من دخان الحطب وأنفاس الماشية وأدخنة

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

البولينتا واللبن. أحيانًا بين صخرة وأخرى كنت أجد مسمارًا كبيرًا، أو وتدًا خشبيًّا نصف محروق. ماذا كانوا يعلقون هنا؟ ومن يا ترى وضع هذا؟ كان منزلًا مكدسًا بالأشباح ولكنه لم يبعث على الخوف: بدا لي كأنني أسكن مع كل هؤلاء الجبليين، أنني أتعرف إليهم من خلال مساحات وأشكال الأشياء، والسخام الذي ما زال يلطخ بالسواد بعض أجزاء الجدار.

بُني المنزل الذي قضيت فيه صيفياتي وأنا طفل كفندق عام ١٨٥٥، ولكن في فترة طفولتي تحطم بالفعل. كان يبرز من القرية، على قمة شارع من أشجار الزان، وأسفل شلال يصبح عنيفًا في أثناء أمطار نهاية الصيف.

وعلى الدهان المقشر للواجهة توجد لوحة تُذكّر بإقامة الملكة مارغريتا لسافويا عندما كانت ورشة الميكانيكي هي صالة الرقص، وسطح الفندق الذي غزته الأعشاب الضارة التراس حيث يُقدمون الشاي بعد الظهيرة. عمل الفندق حتى نهاية الثلاثينيات، ولكن احتله الألمان في أثناء الحرب، ثم بيع، بعدها بخمسين عامًا وهو ما زال يحمل الشكل الفخم لأطلال قصر: امتلكته أختان عجوزان قسمتاه إلى مساكن وكانتا

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تربحان بعض النقود منه بتأجيره في الصيف، في حين يظل مغلقًا في باقي أشهر السنة. لم يكُن يتمتع بأي صيانة ولا تدفئة، وفي كل شتاء كان يتعرض لأضرار جديدة، وتسبب هطول الثلوج في أبريل عام ١٩٨٦ في الضربة القاضية: حطم انهيار جليدي جزءًا من المبنى، وصار جناح كامل منه آيلًا للسقوط، وعلى الجدران التي ظلت قائمة، ظهرت في الصيفيات التالية شروخ ضخمة، وخلال الأعوام بدأت النباتات الشائكة تنمو على الأنقاض دون أن ينزعها أحد. ولكنني، أكثر من كونها أنقاضًا، كنت أتذكر الدهشة عند العثور على الجليد في بداية يوليو، مرتفعًا جدًّا، مثلجًا وقاسيًا يمكن أن يصبح منحدرًا مناسبًا للمتزلجين، حيث يبقى صيف الانهيارات الجليدية إلى الأبد.

عند الوصول إلى المدينة كان يبدو لي أنني وصلت إلى حقبة زمنية أخرى، زمن كانت المطابخ مزودة بحوض من الحجر، وأحواض الحمامات والمغاطس من الحديد الزهر. وفي السقفية، في الغرفة العليا التي كنت أنام فيها، كان محفورًا اسم فتاتين آنجيلا ومادلينا. كنت أعلم أنه يومًا ما كان يسكن الخدم في تلك الغرف، هكذا كنت أتساءل إذا كانت آنجيلا ومادلينا وصيفتين من بداية القرن، في خدمة بعض سيدات البلاط،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وكنت أتخيل حواراتهما المسائية. لا أعرف إذا كانت للمنازل أنفس، ولكنني تركت جزءًا كبيرًا من نفسي في ذلك المنزل، لقد سكنت فيه نحو عشرين عامًا، شهرين في العام، بدءًا من عام ١٩٧٩. ومع نهاية القرن العشرين حانت نهاية ذلك الفندق القديم أيضًا، بيع وهُدم وأعيد بناؤه ليصبح عمارة سكنية. وهكذا عن ذلك المكان، كما كان يكتب ماريو ريغوني سترن: لم تبقَ الآن سوى كلماتي هذه.

•

فكرت في صيف الانهيال الجليدي وأنا أنظر إلى بقع الثلج في المرج الواقع أمام الكوخ. على الرغم من أن ظلال الغابة تحميها فإنها كل يوم تسيح قليلًا: جداول مياه تجري إلى أسفل في المرج كاشفة عن أرض سوداء رطبة، عشب كأنه محروق. تقف هناك عصافير بطونها بيضاء وظهورها قاتمة تنقر الأرض عند أطراف الثلج. أخذت كتابًا لأتعرف إليها وكنت شبه متأكد من أنها طيور الشرشور الألبية، وكان مكتوبًا: تبحث عن يرقانات الحشرات في الأرض المُشربة بمياه الذوبان، وتعشش في أجواف الصخور أو على جدران الأكواخ.

في الواقع اثنان منها صنعا العش فوق عارضة سقف كوخي، في ذلك الركن المنعزل والمظلم بين العارضة والسقف. كانا يطيران

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ذهابًا وإيابًا بين المرج والعش ويرافقانني في أثناء تناولي الغداء وأنا أجلس أمام المائدة المواجهة للنافذة.

بعد الظهيرة ارتفعت سحابة سميكة، كنت أراها تأتي من عمق الوادي، وتصعد على المراعي والغابات وفي النهاية تحيط بكل شيء. مكثت يغمرني هذا اللون الأبيض حتى حل الظلام. لا قمر ولا نجوم ولا مساء، ولكن مطرًا يحمل بعض الثلج بدأ يسقط عندما ذهبت إلى الفراش.

في الليل لم أستطع النوم. لم أكن معتادًا هذا الارتفاع، كان قلبي يدق بسرعة أكثر من المعتادة، وبدا لي كأن بداخل صدري طبلًا. تختلف الأصوات عن الروائح، لا بد من بعض الوقت لتهدهدك، وألا تقفز فزعًا أمام كل صخب جديد. وهكذا بعينين مفتوحتين كنت أحدق إلى السقف وأفكر: هذا صوت الحطب الذي يُحرق ويطقطق في المدفأة، هذا موتور الثلاجة القديمة حين يشتغل، هذه هي الأمطار على السقف الحجري، وتلك الخطوات في الخارج، في الثالثة صباحًا، لمن تكون؟ كانت تدور حول المنزل، تتردد أمام الباب، في المدينة كان ستحضرني بالسليقة فكرة وجود لص، ولكن هنا فوق كان لا بد أن ألجأ إلى الجزء العقلاني بداخلي وأقنع نفسي أن ذلك

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الزائر ليس سوى حيوان بري يبحث عن الطعام. لم تفدني تلك الطريقة كثيرًا: لم أغلق عيني لباقي الليل، حتى استسلمت أمام النور الأول للفجر ونهضت ووضعت القهوة على النار.

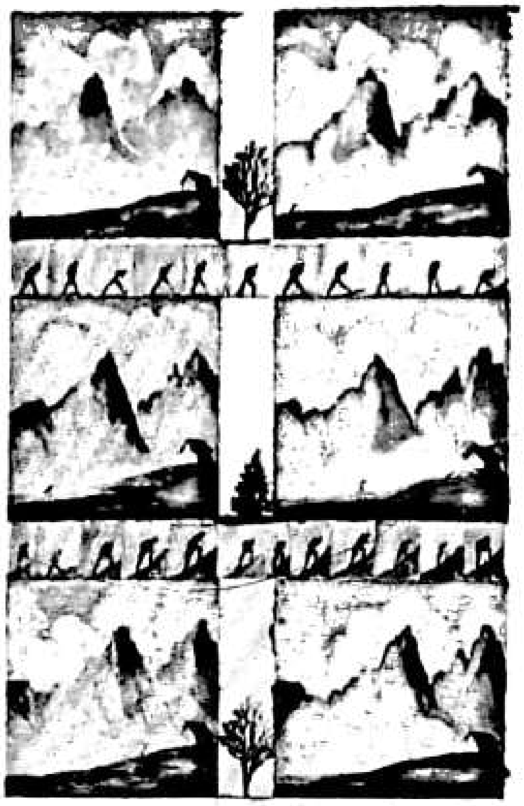

(7) Mario Rigoni Stern: (١٩٢١- ٢٠٠٨) كاتب إيطالي وبطل من أبطال الحرب العالمية الثانية في قوات الألب.

(8) Ernest Hemingway , Big Two-Hearted River

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

طوبوغرافيا

يكتب إيليزيه ركليو(9)، الجغرافي الفوضوي للقرن التاسع عشر، الذي عاش منفياً فترات طويلة بسبب أفكاره: من كل بقعة، من كل وادٍ، من كل مسيل، يظهر منظر الجبل أسفل منظور جديد، بهيئة مختلفة. فالارتفاع، بمفرده، مجموعة كاملة من الجبال، وهكذا في وسط البحر، كل موجة هي محصلة عديد من الأمواج الصغيرة غير المنتظمة. ولنستطيع أن نمسك بمجمل الهيكل الهندسي للجبل لا بد من دراسته، التجول فيه بكل الحواس، تسلق كل منحنى، والتخلل حتى في أصغر المضايق. مثل كل شيء، يصبح لا نهائيًّا لمن يرغب في التعرف إليه بجملته.

بهذه الروح بدأت عملياتي الاستكشافية. اتخذت المضيق الذي يبدأ من الكوخ وبدأت صعوده لأرى إلى أين يؤدي. عبرت غابة من أشجار اللاركس، كانت جذوعها العالية والعارية تتبدل من حين إلى آخر مع اللون الأخضر الراتينجية أكثر شباباً. وفي أعلى بعض الشيء كانت الأشجار أقل كثافة، على

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

المراعي المكشوفة للشمس كانت تنمو بالفعل نباتات الزعفران الأولى، ولكن كان يكفي مجرد أن أغير نظرتي من الجنوب إلى الغرب لأرى الثلج يحتل مكان المرعى. كانت المياه تبرز من كل مكان، كأن الجبل بكامله مُخصب. من ثقب بين الحجارة، بعض الجذور المكشوفة لشجرة لاركس تكوّن مجاري عكرة من الطمي، وحيث ينحني المدق تجاه الشمال غرست قدماي في الثلج إلى فخذيّ، هكذا نزعت نفسي من هذه الحفرة وقررت العودة إلى الوراء. نزلت وثبًا وأنا أصرخ كأني يتي (إنسان الجليد). لم أكن بدأت بعد التحدث بمفردي، ولكن كنت أحب أن أغني بصوت مرتفع، أغاني الحب، والجبل، والصراع، لم أكن أرى كائنًا حيًّا منذ أسبوع وكانت الطريقة التي أسلي بها نفسي.

فكرت في أن الشعور بالوحدة سيزيد مع مرور الوقت، ولكن حدث العكس، بعد الأيام الأولى من العزلة كان لديّ الكثير لأفعله. اعتياد خريطة المنطقة، تصنيف الحيوانات والزهور، جمع الحطب من الغابة، القيام بتجارب براتينج الأشجار، تنظيف المرج المحيط بالكوخ. كان الثلج في ذوبانه يهديني مفاجآت: جمجمة غرير، فحم نيران أُشعلت في العراء، آثارًا خلفتها عجلات

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

جرار. ثقب فأر خرج للتو من جحره شجعني، إذا استطاع هو هذا، فكرت، بعد ستة أشهر تحت الثلج، فسيكون موسمي أسفل الشمس لعبة صبية.

بالنسبة إلى الخريطة، بدأت من وراء باب المنزل وبدأت تتسع شيئًا فشيئًا كلما اكتشفت ما يوجد حولي. تقدمت في الاكتشافات والقراءات، والتنقيب عن الآثار والاستنتاجات المتشككة. كان المكان الذي أسكن فيه يقع في قرية صغيرة جدًّا اسمها فونتانا. كنت أشغل الكوخ الأول من أربعة متراصة، وكانت واجهاتها إلى الجنوب، تطل على وادٍ يعبره جدول بلا اسم. في فترة ما، عندما كانت تلك المراعي الجبلية ما زالت تعمل، كان طريق الماشية يصل حتى هنا من القرية المسكونة طوال العام. كان طريقًا محفورًا في الأرض ومحددًا بجدران صغيرة من الحجارة الجافة، حتى لا تقتحم الماشية التي تمر فيها المراعي. ما يزال يُرى في بعض المواقع خط عرضه متر يحيط بالغابة، تجاوره من حين إلى آخر تراكمات من الحجارة البيضاء، شكلتها عصي وأزاميل الرعاة القدماء إلى مربعات. لم يستحق الجدول هناك في أسفل، الذي تعود إليه تلك القرية، اسمًا بسبب صغره، قسته بالخطوات ولم يتجاوز المائة. كان يتدفق

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

من نبع في وسط المرعى ويسقط في مجرى ماء آخر يقع في مستوى أكثر انخفاضًا. كان يجري فوق حصى صغير، انعكاساته بيضاء وزرقاء، يشبه إلى حدّ مدهش قاع نهر. بجوار المجرى، وفي مقابل كل كوخ، كان هناك بناء حجري صغير. كانت المستودعات التي يضعون فيها اللبن بعد حلبه: المياه الجارية تبرده وتخرج منه قشدته، ثم تُصنع منه الزبد بعد ذلك. الآن في مستودعي الصغير لا يوجد لبن ولكن مضخة كهربائية تأخذ المياه من المجرى وترسلها إلى المنزل. على الرغم من أنني أغسل يدي وأشرب مثل أي شخص من المدينة، أي بأن أفتح الصنبور وأعاير كما يحلو لي الساخن والبارد، فإنني عندما أفعل ذلك أتذكر دائمًا أن المياه آتية من هنا، من ذلك القاع الأبيض والأزرق وسط العشب، وفي مذاقه في الليل يبدو لي أنني أتذوق الجليد.

منذ قرون عديدة كانت الأرض المحيطة بي غنية بالينابيع ومُعرضة جيدًا للشمس، كانت خالية من الغابات والحجارة وممهدة في الأماكن الضرورية، في البداية لزراعة الشيلم ورعي الماشية، ثم لإعداد ساحات الترلج. وحتى الخمسينيات كان من الصعب العثور على شجرة في تلك الأنحاء، هكذا كما كان

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

يصعب العثور على حيوان بري: رأيت صورًا قديمة للحقول المزروعة كانت تمتد إلى ارتفاعات لا يصدقها عقل، ويبدو الجبل كمرج معتنى به جيدًا. ثم، في فترة ما بعد الحرب، بدأ الخروج من الأراضي المرتفعة، وهكذا استعادت الغابة الأرض مرة أخرى. تلك القريبة من الكوخ كانت ممهدة منذ خمسين عامًا، كانت أشجار اللاركس ما زالت شابة، كلها بالحجم نفسه، وكانت مقلمة بحيث يمكن للعشب أن يستمر في النمو أسفلها. في النهاية، وبين السبعينيات والثمانينيات، قُطع جزء من تلك الأشجار لمنح مساحة للساحات التي كانت تقطع جانبي الجبل كأنها مزالج للانهيالات الجليدية. ظهرت أعمدة المنشآت ومُهد بعض الانحناءات وهكذا اتخذ المكان شكله الحالي.

لماذا أنا مهتم على هذا النحو بهذا التاريخ؟ لأنني كنت أحتاج إلى أن أردد على نفسي شيئًا بسيطًا للغاية: إن المنظر الطبيعي المحيط بي، ذا الشكل الأصيل والبري، الذي تصنعه الأشجار والمروج ومجاري المياه، كان في حقيقة الأمر نتاج عدة قرون من العمل الإنساني، كان منظرًا اصطناعيًا مثله مثل ذلك الذي للمدينة. من دون الإنسان، لما كان أي شيء هناك فوق بهذا الشكل الذي هو عليه، ولا حتى المجرى الصغير ولا بعضًا من

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تلك الأشجار الضخمة. حتى المرعى الذي كنت أتمدد فيه في الشمس كان سيكون مجرد غابة كثيفة، لا يمكن دخولها من الجذوع والأغصان المتساقطة، ومن الكتل المغطاة بالطحالب وأدغال متلاصقة من العرعر والتوت والجذور المتشابكة. لا توجد حياة برية على جبال الألب، ولكن تاريخ طويل من الوجود الإنساني، يعيش اليوم عصر الهجران: البعض يعانون من ذلك، مثل المعاناة من موت حضارة ما، أما أنا فأسعد عندما أعثر على شيء من الأطلال ابتلعته الأدغال، أو شجرة تبزر حيث يوماً ما بزرت حبوب القمح. ولكن لم يكن تاريخي ليختفي، أنا من يحلم بعودة الذئاب والدببة لم تكن لي جذور هنا، لن يفقد شيء إذا تحرر الجبل تماما من الإنسان.

Telegram: @mbooks90

هكذا اتخذت عمليات التنقيب التي أقوم بها طابع التحقيق، ومحاولة أن أقرأ القصص المكتوبة على الأرض. بشكل أقل شاعرية، كنت أجمع الفضلات، في دلو قديم من الخشب المتهالك، نصفه مغطى بالقاذورات، ومقبضه صدئ. كان التاريخ الذي يهمني هو ذلك الإنساني: لماذا، على سبيل المثال، الكوخ الواقع خلف كوخي يوجد به ذلك الاتساع على أحد جانبيه؟ ربما سارت الأمور في فترة ما بطريقة أفضل، واحتاج

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

مربي الماشية إلى حظيرة أكثر اتساعًا؟ كان الكوخ الأكبر بينها ولكنه أيضًا كان الأكثر تقشفًا. النوافذ صغيرة جدًا، ثلاث لوحات متصلة تصنع التراس. الكوخ الثالث كان تصميمه معكوسًا، وكانت واجهته تطل على الناحية الشمالية. في هذه الحالة أيضًا لا بد من وجود سبب وجيه لرفض الشمس: ربما نزاع له علاقة بالحدود؟ الكوخ الرابع في نهاية الأمر كان المستمتع بعناية أكبر، وربما أحدثها، كان به تراس صغير عليه بعض محاولات الزخرفة، الزجاج على النوافذ بل وبعض الجص على الجدران الخارجية.

كان لون الجص رماديًا، مع بعض الحدبات هنا وهناك، بلون أبيض متسخ، أعجبني كثيرًا. في الخارج كانت توجد أسوار غير متساوية، للدجاج والأرانب أو حيوانات حظائر أخرى. نظرًا إلى أن القرية كانت بها درجة صعود خفيف، فإن المنزل الأبيض كان يسود من أعلى ذلك الجانب المقابل، ذلك الذي به المستودع الكبير ومسكني، والذي في المقابل كان يستمتع بمنظر طبيعي بلا عوائق.

عندما أنظر إليها أحيانًا أتساءل: هل كانت هناك حقبة ما كانت فونتانه فيها قرية مسكونة؟ كنت أجد صعوبة في تخيل ذلك، في

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الجبل لم أكن أرى سوى حطام منذ صغري. كان لدي انطباع بأن الحاضر، هناك فوق، منذ فترة طويلة لم يكُن سوى رُكام من الفخار، من المستحيل إصلاحه. كان يمكنك فقط أن تُديره بين يديك لتخمن فيمَ استُخدم، كما يحدث لي أن أحرك حجراً وأجد أسفله مقبضًا خشبيًّا، ومسمارًا ضخمًا معوجًّا، وعقدة من سلك حديدي، وجاروفًا يعلوه صدئًا.

حتى إن كان الأمر يبعث على الضحك، إلا أن كل واحد من تلك الأكواخ له رقم مدني. لا بد أنه، في لحظة مَا، تَسَلَّم أحد الموظفين في البلدية مهمَّة تسجيل كل تلك المباني، وهكذا حتى الأطلال المتفرقة في الجبل لها أيضًا لافتة تحمل رقمًا ما. كان منزلي يحمل رقم واحد. فكرت، يومًا ما سأهبط إلى السهل وسأرسل لنفسي كارت بوستال على: محلة فونتانه رقم واحد، ثم سأعود إلى هنا أنتظر ساعي البريد الذي سيصعد إلى هنا من المدق. كان الكوخ ذو الحظيرة الكبيرة يحمل رقم اثنين، وذلك المفتوح على الجهة المقابلة ثلاثة، والمطلي بالأبيض أربعة. ولكن هناك كانت تسكن فقط حيوانات الزعبة والغرير، التي كنت أسمعها تتحرك من حين إلى آخر. كنت أنا السكان. مثل روبنسون على الجزيرة المهجورة: «أنا السيد المطلق للإقطاعية،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

يمكنني أن أدعي نفسي ملكًا أو إمبراطورًا على كل الأراضي التي أملكها». كنت أمثل، في الوقت نفسه، الساكن الظاهر وذلك الساقط في الحطام، النبيل المالك والحارس المخلص، الحانة والسكير، القاضي وعبيط القرية: كان لدي الكثير من نفسي بين قدمي، حتى إنني أحيانًا كنت أخرج في المساء وأجول في الغابة، لأمكث وحدي قليلًا.

Élisée Reclus (9)

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الثلج

في صباح أحد الأيام في منتصف شهر مايو، استيقظت أسفل الثلج. في المراعي بدأت بالفعل زهور البنفسج في التفتح، ولكن في منتصف النهار تحول كل شيء حولي إلى اللون الأبيض. عاصفة من البروق والرعود، مثل الصيف، أعادت الشتاء إلى تلك الأنحاء. مكثت في المنزل طوال اليوم، المدفأة مشتعلة، وأنا أقرأ وأنظر إلى الخارج. كنت أقيس طبقة الثلج التي تتراكم على التراس: خمسة، عشرة، خمسة عشر سنتيمتراً. كنت أتساءل ماذا حدث لما لاحظته من زهور وحشرات

Telegram:@mbooks90

وطيور، وأنا أشعر بنوع من الظلم بسبب قطع ربيعها. عثرت على القصة التي فيها يصنف ريغوني سترن تساقط الثلوج المتأخر: ثلوج السنونو في مارس، ثلوج الوقواق في أبريل، وكانت الأخيرة بالنسبة إليه هي ثلوج السمان. «سحابة تنزل من الشمال، رياح، انخفاض في الحرارة، وها هو ثلج شهر مايو. يستمر فقط لبضع ساعات، ولكنها كافية لتخيف الطيور في أعشاشها، وتقتل النحل بعد أن تفاجأ خارج الخلية، وتسبب القلق لدى أيائل منتظرة الوضع».

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ونحو الساعة السابعة مساءً صفت السماء وأصبحت تلك البقعة البيضاء لامعة، بسبب الشمس التي برزت من وسط السحب، قبل الغروب بقليل. ارتديت سترة واقية من الرياح وحذائي لأخرج في جولة، وعلى الثلج عثرت على آثار مختلفة لحيوانات برية: أرنب بري، زوج من الأيائل، عصافير كثيرة جدًّا، وآثار أخرى لم أستطع التعرف عليها. صدمني اكتشاف حركة الذهاب والإياب تلك، في حين أنا في المنزل أعتقد أنني وحيد جدًّا وأعاني لهذا. لكنها دائمًا هناك، تراقبني، تشمني، تلاحظ تحركاتي، في حين لديّ أنا عينان غير قادرتين على رؤيتها، ومن النافذة كنت أنظر إلى الغابة دون أن ألاحظ أي شيء. سألت نفسي إذا كنت سأتعلم الاقتراب منها، مع مرور الوقت، أو أنها هي التي بالتدريج التي ستثق بي. في الوقت الحالي يمكنني فقط أن أتبع آثارها، واخترت تلك التي للأرنب البري للطفها، كانت آثارًا على شكل حرف V، وكانت تتتابع في وثبات، تنطلق من شجيرة عرعر بالقرب من طريق البغال. كانت تتتابع لوهلة ثم، لدهشتي، اتجهت نحو الكوخ. دار الأرنب البري حول شجرة اللاركس المسنة، وذهب ليشرب من النافورة، بل وقفز أيضًا فوق المائدة الموضوعة في الحديقة. كان هناك أثر واحد وحيد هناك فوق، كانت تكفيه قفزة ليصعد وأخرى لينزل، تخيلته

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ينظر حوله ويقرأ علامات وجودي، أدخنة من الموقد، المنجل والمنشار بالقرب من الحطب، الغطاء المفرود على التراس، وفي النهاية تسلق السور، وابتعد في اتجاه جدول المياه. وفوق الآثار لم يسقط مزيد من الثلج، ومِن ثَمَّ في حين كنت أنا أتبعه، كان الأرنب قد أتى ليزورني.

في أثناء هطول الثلوج كنت قد سمعت انفجارًا قويًّا، كأنه رعد قريب جدًّا. عندما ذهبت بعد ذلك لأرى ما يحدث في الغابة، وجدت شجرة لاركس قد سقطت. كُسر الجذع من على ارتفاع شخص، كسرًا طويلًا غير متساوٍ يرتفع نحو متر أو اثنين. شعرت بشعور غريب وأنا أنظر إلى الشجرة المُمددة على الأرض، ساكنة، ولكنها ما زالت على قيد الحياة. كانت الأغصان المغطاة بالبراعم تغوص في الجليد، وبدا لي أنني أسمعها تئن مثل حيوان متألم. خذلتها أوراقها الجديدة، تلك التي نمت في نهاية الشهر: في الشتاء تكون شجرة اللاركس عارية، تحمل قليلًا من الثلج على أغصانها، ولكن الآن تراكمت تلك التقوسات المبللة والثقيلة في كميات كبيرة في إبرها المكثفة. وهكذا سقطت شجرة نجت من الثلوج طويلة المدى في التساقط الأخير، المفاجئ والكارثي، للثلج في شهر مايو.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

في حين أدور حولها رأيت عصفورًا صغيرًا في الثلج، كان يتحرك بصعوبة، وفكرت في أنه سقط من العش مع الشجرة المحتضرة. عندما رفعته حاول أن يرفرف جناحيه في يدي، ثم هدأ أو ربما شله الرعب، لن أعرف أبدًا. كان أول شكل من أشكال الحياة أتصل به منذ أيام، وكنت أشعر بالتأثر الشديد، لم أكن أعرف أنه سيحكم عليه بحداد لا يمكن تجنبه. كنت أشعر بنبضاته المتسارعة في كف يدي، دغدغة مخالبه على جلدي. قلت له: كل شيء على ما يرام، اهدأ، سأعتني أنا بك. في المنزل فردت قطعة قماش في قاع صندوق للأحذية ووضعته هناك بالداخل. ماذا يمكن أن يكون طعام طائر صغير بهذا الشكل؟ لم أستطع حتى، بسبب الثلج الموجود في الخارج، أن أبحث له عن بعض الحشرات أو الدود. حاولت أن أعطيه بعض كرات الخبز، ورأيت أنه يقبلها، استطاع أن يبتلع بعضًا منها ثم توقف ونام. ولكن الجوع والنعاس لم يكونا إلا من أوهام الحيوية. عندما عدت لأطمئن عليه كان نائمًا على أحد جانبيه، ما زال يتنفس، ولكنه كان في وضع غير طبيعي بالمرة، ولم يفتح عينيه قط. قبل أن يحل الظلام كان قد مات، وذهبت لأضعه بجوار شجرة اللاركس الساقطة، حيث ربما، في تلك الليلة، يمكن أن يصبح وجبة ذئب أو غراب. كان يبدو لي أن تركه لها سيكون

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أكثر صلاحًا من دفنه داخل حفرة ما.

في صباح اليوم التالي كنت ما زلت أفكر في ذلك الطائر الصغير، في حين أشرب القهوة وأراقب الثلج وهو يسيح أسفل حرارة أشعة الشمس، عندها رأيت رجلًا يصعد من المدق. خرجت على العتب لأستقبله ولكنني كدت أجري نحوه للقائه من الحماس. من الصعب شرح تأثير زيارة في أعقاب فترة من الوحدة التامة، بالنسبة إليّ كانا مجرد أسبوعين، ولكن عندما رأيت الرجل يقترب بدأ قلبي يدق بسرعة. كان ريميجو، صاحب المنزل، أتى ليرى إذا تسبب هطول الثلج لي في أي مشكلات، وإذا كان لديّ ما يكفيني من الحطب ليدفئني. لم أكن أعرف الأفكار التي لديه حول وجودي هناك في أعلى، في المرة الوحيدة التي التقينا فيها حكيت له أنني أكتب، وأنني أتيت إلى هنا للعمل. لم يشعرني هو أن كلامي تسبب له في أي صدمة، وبلا كلمات كثيرة شد على يدي وسلمني مفاتيح الكوخ، كأنه ليس ملكه.

إلا أنه في ذلك اليوم كان أكثر لباقة. دعوته إلى الداخل ليتناول القهوة، وتحدثنا قليلًا. عندما رأى الكتب التي أحضرتها معي، اكتشفت أنه قارئ جيد: تحدثنا عن إيري

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

دي لوكا(10) وماورو كورونا(11)، ثم تصفحنا مذكراتي عن الحيوانات البرية وأشجار الغابة، وفي النهاية أعرته حكايات ريغوني سترن التي كنت مرتبطًا بها كثيرًا، لأنها ساعدتني لأرى وأشعر في أيامي الأولى هناك فوق. يسمعني ريميجو بانتباه شديد، وعندما يتحدث يختار كلماته بعناية. كان يبدو أنه في الأربعينيات، ولكن الجلد القمحي والشعر الرمادي يخلقان تضادًا عجيبًا، فقد بدا لي شابًا ومسنًا في الوقت نفسه. وبالتعرف إليه اكتشفت أن هذا تعريف جيد له.

بعد ذلك عاد ومعه منشار كهربائي وقطعنا شجرة اللاركس التي سقطت إلى قطع. لم يبقَ من ثلج اليوم السابق غير بعض البقاع في الظل. سندنا الجذوع الكبيرة إلى جدار الكوخ الذي يطل على الغرب، سأقطعها بعد ذلك في هدوء، وسأتركها لتجف. إذا قام الصيف بدوره، فكرت وأنا أنظر إليه يبتعد، سيكون لدي كثير من الحطب لأحرقه في سبتمبر، وربما أيضًا صديق معه يمكنني أن أشارك متعة المدفأة.

(10) Erri Di Luca: كاتب وشاعر إيطالي، وُلد في نابولي عام ١٩٥٠.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

(11) Mauro Corona: كاتب وشاعر إيطالي متسلق للألب.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بستان

بعد تخزين الحطب، كان هناك عمل آخر أريد إنجازه. منذ فترة كانت الفكرة تجول في ذهني ومنحني اللقاء مع ريميجو الدفعة الحاسمة. في صباح نهاية مايو، وفي انتظار أن يصل هو بالمعدات بنيت مصطبة: نزعت حجرين ضخمين من بقايا طريق الماشية، ووضعت فوقهما لوحًا خشبيًّا وجدته في الغابة، كان لونه رماديًّا نتيجة كل ما تعرض له من أمطار وأشعة الشمس، وبه تعرقات خشب بارزة مثل تلك التي للمسنين. ثم جلست لأقرأ فصلًا من والدن (12) عن حقول الفاصوليا: «ماذا كان يعني هذا التعب المنتظم، والفخور والصغير لهرقل، لا أعلم. وصلت إلى أن أحب خيوطي، وفاصوليتي، على الرغم من أنها أكثر بكثير مِمَّا احتاج إليه. كانت تلصقني بالأرض، وهكذا كنت أتلقى القوة. ولكن لماذا كان عليّ أن أزرعها؟ لا أحد يعلم سوى الله. هذا كان عملي الغريب طيلة الصيف، أن أتأكَّد أن هذا الجزء من سطح الكرة الأرضية، الذي سبق أن منح فقط النفل والتوت، ونباتات ضارة، وثمار الغابة الحلوة، وزهورًا، يمنح بدلًا من كل هذا الخضراوات. ماذا تعلمت من الفاصوليا، وماذا تعلمت

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الفاصوليا مني؟ اعتنيت بها، وحميتها من الأعشاب الضارة، وكنت أعود لأنظر إليها كل ساعة، وكان هذا عملي اليومي».

سحرتني كلمات ثورو فدرست المرج الذي يهبط وصولًا إلى النهير. ميزت منه بقعة تقريبًا أسفل النافورة، كانت أرضًا جيدة، كان الرعاة يسمدونها كل عام، تستقبل الشمس في التاسعة صباحًا حتى الثامنة مساءً، وكانت مياه الري هناك على بعد خطوتين منها. كان يبدو لي أنني أرى بالفعل اللون الأحمر للطماطم، والأصفر لزهور الكوسة. كنت متشوقًا جدًّا لبدء حياتي كمزارع.

أطفأ ريميجو على الفور ألوان خيالي. هناك في أعلى يمكنني أن أنسى الثمار، شرح لي، فنمو الأوراق في حدّ ذاته أمر جلل: الخس والكرنب، الشمندر والسبانخ، والشوندرة. ربما ببعض من الحظ يمكنني أن أزرع أيضًا بعض الجزر والفجل، القنبيط الأخضر والكرات. هل هذا يناسبني أيضًا؟ أجبت بأن كل شيء يناسبني. ثم أمسكت بالمعزق الآلي للمرة الأولى في حياتي: وهو عبارة عن محراث صغير بالموتور في حجم قاطعة الأعشاب، يدخل نصفه في الأرض على عمق بعض العشرات من السنتيمترات، يقلب التكتلات ويفتتها، وحرثنا بطريقة ما

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

مستطيلًا أربعة أمتار في ستة.

كان فقط بداية أتعابي. بمجرد أن فتتت الطبقة العليا قضيت باقي اليوم في حراثة وتسوية الطمي الموجود في أسفل. أزلت الحجارة ونزعت الجذور، واكتشفت أن تلك الزهور الرقيقة لها بذور ضخمة وقوية وصعب نزعها مختبئة في أعماق بعيدة لتنجو من الصقيع. أخذت أفتت بيدَي التكتلات الأكثر تماسكًا، ثم نزلت إلى القرية .لأبتاع النباتات. ولأحميها من الأيائل بنيت سورًا بأربعة أعمدة من خشب اللاركس. لففت حولها شَبكة قوية، وكنت سعيدًا جدًّا لما أصبح عليه بستاني الصغير، ولكن عندما، في النهاية، جلست لأتأمله بإعجاب، اختفى صوت ثورو، وفي مكانه بدأت نغمات أغنية العازف جونز لدي أندريه(13). كان الجزء الذي فيه يقول إن الحرية تنام في الحقول المزروعة. وفجأة، بدت لي تلك الهضاب الست البارزة من الأرض المقلوبة كأنها قبور كئيبة، وكأن حريتي دفنت هناك في أسفل، وحرية الأيائل، بل وحرية المرج نفسه. شعرت ببعض الاكتئاب، وهكذا وضعت المحراث والجاروف جانبًا وأخذت العصا وقررت أن أذهب لأتمشى.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

صعدت إلى أعلى إلى حيث لم أُدفع قط، ثم في مكان ما هجرت المدق، لأن كل الطريق الواقع في الظل ما زال يغطيه الثلج. لم يكُن هناك أحد في الجوار: السحب منخفضة، واقتربت الأمطار والرياح الباردة فأبعدت هواة المشي. ألقيت بنفسي إلى أسفل في طرق غابة صغيرة من الصنوبريات بنيّة أن أعبرها وأن أصعد إلى الوادي المقابل للشمس، حيث المنحدرات خالية أكثر من الثلج. في نهاية الغابة عثرت على جسر خشبي صغير، وقرية بها نحو عشرة منازل على ضفاف مجرى، كانت كلها تقريبًا بلا سقف، والجدران مقلوبة في أشكال جبلية مشوهة في ذلك الانحناء السابق للانهيار. بعد تخطي الشعور بالهجر دخلت أحد الأكواخ التي لا تزال قائمة. في الحجرة الوحيدة عثرت على فراش خشبي صغير، وأريكة، ومقعد تنقصه قدم، وعلى الأرض آثار أحدث: علب لحم وسردين، زجاجات نبيذ صغيرة، قميص تحول إلى خرق، بواقي بعض الرعاة الذين عسكروا هنا بالداخل بلا عناية. كانت هناك أيضًا الرائحة الخانقة للعفن، فعدت إلى الهواء الطلق لألتقط أنفاسي.

وعندما عدت لأتسلق المنحدر وصلت إلى إحدى قمم الجبال، وأخيرًا من الجهة الأخرى رأيت البحيرة التي سمعتهم يتحدثون

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

عنها.. كانت مغطاة بطبقة من الجليد ويحيط بها الثلج، لم تكُن هناك سوى بعض الصخور الصغيرة التي تبرز من حين إلى آخر من الأنهار الأكثر انحدارًا. فكرت في الذهاب إلى هناك، ولكن عند رؤيتها هكذا، من أعلى، في ثلج ذلك الحوض الواقع في الظل، غيرت رأيي. عندئذٍ تمددت على الأرض وجلست هناك في أعلى، يداي خلف عنقي وأنا أتأمل السحب الممتلئة بالأمطار، وبين واحدة وأخرى كانت تُفتح ومضات زرقاء.

Telegram:@mbooks90

يحلق نسران حول إحدى القمم، ربما في محاولة لصيد صغار الشامواه والوعول الجبلية التي تولد في شهر مايو. أما الغربان، الأقل نبلًا والأكثر رحمة، كانت تحوم حول المراعي الجبلية المهجورة بحثًا عن بقايا الطعام أو بعض جيف القوارض التي لم تنجُ من الشتاء.

ثم اقترب النسران، ونزلا من ارتفاعهما بعض الشيء، وهكذا أدركت أنهما زوجان، ولكن كان أحدهما نسرًا ناضجًا والآخر شابًّا، وكان ما أشهده الآن على ما يبدو درسًا في الطيران. كان النسر الكبير يكرر بعض المناورات الدقيقة: يمكث ساكنًا في وسط السماء، يدعمه تيَّار صاعد ثم فجأة يجمع جناحيه ويدور حول جسمه، في وضع أفقي، في تهاوٍ بلا سيطرة. كانت تبدو

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

فقرة من فقرات الطيران الأكروباتي. وعلى بُعد بضعة أمتار في أسفل كان يطوي جناحيه ويفرمل السقوط، عندئذٍ يسترجع التيَّار ويعود إلى الارتفاع البدائي. كان النسر الصغير يراقب باهتمام، وفكرت في أنه سرعان ما سيأتي دوره. سألت نفسي إذا كان ذلك الكبير أباه أم أمه.

في طريق العودة عادت لتمطر من جديد، وحولت الأمطار الثلوج إلى .وحَل. يوم مثالي للتمشية. ولكن بقدمي غارقتين في المياه، وشعري مبلل والرياح تثلجه، كنت أشعر بأنني على الأقل بدأت أستعيد مزاجي الحسن. وجدت نفسي في بقعة يسكنها المرموط، حيث استقبلتني غابة من الصفير وعملية هروب عامَّة، ولكن يوجد واحد أشجع من الآخرين، في حين يهرب رفاقه للاختباء في أول ثقب موجود، كان هو يفتش على سطح المخبأ وينظر إليّ. عندئذ اقتربت ببطء، وأنا أحاول ألا أقوم بأي حركات فجائية. عندما أصبحت على بُعد ثلاثة أمتار منه، اختفى في الحفرة وتوقفت أنا، وضعت العصا وجلست هناك بجوار الحفرة في حذر. فكرت في أن أغني أغنية، ونظرًا إلى أن رأسي كان يدور مِمَّا حدث طوال اليوم اخترت أغنية دي اندريه: *في دوامة الأتربة يرى الآخرون الجفاف، ولكنها تذكرني بتنورة*

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

جبيني في رقصة تعود لأعوام بعيدة(14).

كان يكفي البيتان الأولان فقط لأرى مخطمه يبرز من جديد من البحر، كان يستمع إليّ، يشمني، يحاول أن يفهم أي نوع من الأعداء أنا. استمررت أنا في الغناء: *كنت أشعر بأن أرضي تتذبذب بفعل الأصوات، كان قلبي، إذًا لماذا أزرعه مرة أخرى، كيف أفكر في هذا بطريقة أفضل؟*

كان المرموط يعود من حين إلى آخر إلى أسفل، ولكن في معظم الوقت يمكث هناك لينظر إليّ. ما هذا الآن؟ وماذا يفعل: *الحرية، رأيتها تنام في الحقول المزروعة، في السماء والماء، في السماء والحب، يحميها خيط شائك. الحرية، رأيتها تستيقظ في كل مرة عزفت، لتلمس البنات وهن يرقصن لرفيق لهن نشوان.*

غنيتها ثلاث مرات متتالية، وسمعها المرموط كلها، ثم نهضت واختبأ هو على الفور، أخذت العصا وعدت لأنزل نحو بستاني.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

(12) Walden: عبارة عن سيرة ذاتية عن الحياة في الغابات ألفها هنري ديفيد ثورو.

(13) Il suonatore Jones, Fabrizio De Andrè أغنية للمطرب الإيطالي فابريتزيو دى أندريه، يمكن الاستماع إليها من خلال هذا الرابط https://www.youtube.com/watch?v=iRPgZ٨ZRcT٠

(14) رابط للاستماع إلى الأغنية: https://www.youtube.com/٨HW٨s-watch?v=URxcF

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ليل

تواصل عدم نومي جيدًا. على الرغم من أنه مر أكثر من شهر، فإنني أجد نفسي أستيقظ ليلًا وحواسي يقظة، العينان مغمضتان لكن الأذنين يقظتان، منتبهتان لكلِ صرير للخشب، لكل حفيف يأتي من الخارج. لم تكُن لديَّ قط علاقة جيدة مع الظلام، منذ طفولتي وهو يتسبب لي في الفزع، كنت أقضي الليالي فريسة الشعور بكارثة وشيكة. في المدينة كانت ترافقني أضواء الشارع، كانت نافذتي تطل على شارع عريض لا يتوقف فيه تدفق السيارات، وبلعبة المرايا كنت أرى كشافات السيارات وهي تجري على سقف غرفتي، اللون الأصفر لإشارة المرور وهو ينير، الأزرق لسيارات الإسعاف والأخضر القادم من صيدلية ليلية. من حين إلى آخر يدق جرس إنذار أو صفارة الإسعاف، الأصوات الحادة للعصافير تغطي على الهمس المستمر للنهر. يهدئني الشعور بالحياة أسفل مني، وتهدهدني ضوضاؤها حتى النوم.

في الكوخ عادت لتهاجمني من جديد مخاوف الطفولة: عندما

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

يهبط القمر كان الظلام مطلقًا، والصمت عميق جدًّا إلى حدّ أنه يؤلم أذني اللتين تمددان لتلتقطا أي صوت. كنت أستطيع أن أسمع المياه تجري في النافورة، الرياح التي تحرك قمم أشجار اللاركس، صوت وعل في الغابة، مخالفًا لما تخيلته، لا شيء يشبه الثغاء، كان بالحري يشبه سعلة خشنة، نباح كلب بلا صوت. كانت هي الحيوانات البرية وأنا الحيوان المفترس، ولكن في فراشي كان الظلام يبدل الأدوار. كانت الأنوار الأولى في نحو الخامسة تجلب لي الراحة، تبدأ العصافير في الغناء، وتبدأ الحياة من جديد لتسير في العالَم، ولا تعود يقظتي مطلوبة. إذًا، كالحارس العائد من الوردية الليلة، يهاجمني نعاس شديد أستيقظ منه ثقيل الرأس في منتصف النهار.

وهكذا في إحدى الأمسيات ارتديت كنزتين، وملأت قنينة بالنبيذ وأخذت حقيبة نوم، وقررت أن أعسكر في الخارج. كان نوعًا من العلاج بالصدمة. وفي نحو التاسعة أشعلت النار أمام سور طريق البغال، شذبت بعض أغصان الصفصاف، وبتلك الأسياخ وضعت قطعًا من السجق لأشويها، وكان لدي بعض من خبز البيادينا الهش، ذلك الذي يُطهى بعجن الماء والدقيق، وهناك في الخارج أمام النار كان عشاءً شهيًّا: عندما يجهز اللحم

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أضعه في السيخ مع الخبز وبعد كل قضمة منه أبتلع رشفة من النبيذ. في الساعة العاشرة، حل الظلام، فردت كيس النوم ودخلت فيه، واكتشفت أنني لا أشعر بالنعاس، عندئذٍ جلست دون أن أخرج من كيس النوم، وأنا أزيد النار بحطبٍ صغير كنت قد جمعته من الغابة. جلست أنهي النبيذ وأنا أنظر إليه يحترق.

في تلك الليلة الغريبة خطرت في ذهني ليلة أخرى تعود إلى صيف بعيد، بدأت في بار بلدة ما مع أبي وعمي. بعد العشاء حكى لنا أبي عن جبل، هناك في تلك المنطقة، يصعد الناس عليه في الظلام ليروا الفجر من قمته. كان يبعد عن البلدة نحو ألفي متر من القمم الوعرة المختلفة، تستغرق المسافة إليه من أربع إلى خمس ساعات سيرًا بخطوة جيدة. حسنًا، قال عمي، وماذا سيكلفنا هذا؟ لنذهب. كانا هما تحت تأثير الجرابّا وأنا في الرابعة عشرة من عمري ولدي احتياج كبير إلى أن أثبت شجاعتي. ذهبت معهما. في منتصف الليل أخذنا المدق وقضينا الساعة الأولى من السير نتعرقل في جذور الأشجار والحجارة، نضحك، ونسب، ونضيء لبعضنا البعض بالمصباح اليدوي الوحيد معنا. ثم انتهت الغابة، ولكن انتهى أيضًا تأثير الجرابّا.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

كانا يشعران بألم في الحنجرة وأقدام أضعفها الشرب، ولكن لم يرغب أحد في أن يكون الأول في اقتراح العودة. وبعد منتصف الطريق، في نحو الثالثة، وفي وسط الأحراش، بدا لنا أننا نسمع عزف أرغن، ثم رأينا ضوءًا من نافذة صغيرة. من كان يعزف الأرغن في الثالثة بعد منتصف الليل، في كوخ معزول على ارتفاع ألفي متر؟ كنا متعبين ونشعر بالبرد. قرر أبي وعمي ألا يطرقا الباب حتى لا يفزعا العازف، ولكن أن نتقدم ونحن نغني بأعلى أصواتنا. حتى في تلك الظروف استطاعا الاحتفاظ بروح الشباب. وأمام باب الكوخ بدأنا الغناء كجوقة ألبية، وبعد شطرين توقفت الموسيقى، اشتعل الضوء في الطابق الأرضي وأتى صاحب المنزل ليفتح لنا.

كان رجلًا في نحو الستين. لم يكُن يبدو عليه على الإطلاق أنه سعيد لرؤيتنا. كان من الواضح أنه لا يحبذ الصحبة، ولكنه أجبر نفسه على استضافتنا. أعد لنا شايًا ساخنًا، وأعارنا
Telegram:@mbooks90
مصباحين يدويين آخرين، رفض محاولات الحوار، وتمنى لنا رحلة سعيدة واصطحبنا حتى الباب. ومن بعيد على المدق، سمعناه وقد بدأ يعزف مرة أخرى. في النهاية وصلنا بالفعل إلى القمة، إلا أنني لا أتذكر أي شيء عن ذلك الفجر: من كان

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

هذا العازف الغامض؟ كيف استطاع أن ينقل أرغن إلى هناك فوق؟ ربما لم يكُن هو أيضًا يتمتع بعلاقة جيدة مع الظلام. في ذلك الوقت بدا لي شخصًا غريبًا، إذا لم يكُن أحد مجانين الجبل، إلا أنني الآن، أمام تلك النيران، كنت أتمنى أن أكون قادرًا على العزف أنا أيضًا. جيتار أو حتى هرمونيكا صغيرة. فالغناء فقط لم يكُن الشيء نفسه.

فتحت عيني بعد نوم لا أعرف مدته.. نصف ساعة، ساعتان، ثلاث ساعات؟ في السماء ارتفع القمر، ولم يتبق من ناري سوى كومة من الجمر المتوهج. كنت أشم رائحة الرماد والطمي الرطب، وفي فمي المذاق الحاد للنبيذ، وأسفل ظهري كيس النوم مبتلًا بالندى. هكذا نهضت، وذهبت لأغسل وجهي في النافورة، وعلى الفور أيقظتني مياه الليل المثلجة. كنت مترددًا بين الذهاب إلى فراشي أو إعادة إشعال النار وانتظار الفجر، الذي لا بد قد اقترب. مرة أخرى ذلك الاحتياج القديم إلى إثبات الرجولة: إذا كان العدو الذي لا بد أن أصارعه هو أنا، إذًا فإن الانسحاب من المعركة وإلقاء نفسي أسفل الأغطية يمكن أن يكون الانتصار الحقيقي.

وفي حين أنا جالس على سلالم الكوخ أقرر ماذا أفعل رأيت

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

حركة في المرج.. التفت تجاه المكان الذي نمت فيه، وبالقرب من كيس النوم رأيت الهيئة التي لا يمكن الخطأ فيها لثعلب، الأنف المدبب، العينين المستقيمتين، الذيل الكثيف والطويل طول الجسم. لم ينتبه لوجودي، كان يشتم الأرض حول النار بحثًا عن بقايا عشائي، وجلست أنا في سكون على أمل ألا ينتبه لوجودي لفترة. كان القمر هناك أسفل المرج ينير كل شيء بضوء بارد. حرك الثعلب الطمي المجاور للجمر ولحس شيئًا، قطعة من اللحم أفلتت مني، أو ربما الدهن المتبقي. ثم من لحظة لأخرى، ربما لأن دفعة رياح جلبت له رائحتي، رفع رأسه ورآني. عكست عيناه لمعان الجمر. كان يمكنني أن أكون مجرد كومة قاتمة في ظلال المنزل، واستغرقه الأمر بضع ثوانٍ ليتعرف عليّ. لم يرتعب الثعلب، ربما كان يعرف رائحتي بالفعل منذ بضع ليالٍ، التفت بلا عجلة، وهو يتهادى مبتعدًا في الظلام. ذهبت لأجمع كيس النوم، وفردته على السور ليجف، ثم نمت على سرير الآدميين.

يكتب ثورو: «أجد أن مكوثنا بمفردنا معظم الوقت شيء صحي. إن الصحبة، حتى لو لأفضل الأشخاص، سرعان ما تكون نتيجتها غير محتملة ومشتِتة. أحب المكوث بمفردي. لم أجد قط

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

رفيقًا أكثر حميمية من الوحدة. كثيرون منا يشعرون بالوحدة وهم في وسط الآخرين أكثر مِمَّا هم عليه في مخادعهم. إن الشخص الذي يفكر أو يعمل هو وحيد دائمًا، اتركوه حيث هو. الوحدة لا تقاس بالمسافة بيننا وبين جيراننا.

الرفقة عادةً هي شيء قليل الأهمِّيَّة، فنحن نتقابل كثيرًا جدًّا، دون أن يكون لدينا متسع من الوقت ليمنح أحدنا الآخر قيمة جديدة. نتقابل على الوجبات ثلاث مرات في اليوم، ونقدم أحدنا للآخر ذلك النوع من الجبن القديم الفاسد مثلنا ليتذوقه. ولنتمكن من أن نحتمل تلك اللقاءات المتكررة، ونتجنب أن نعلن الحرب أحدنا على الآخر، لا بد أن نتفق على مجموعة من القواعد، نسميها تربية وذوقًا. نتقابل في مكتب البريد، والتجمعات، أمام المدفأة، ونعيش متكدسين، نتعثر ونتعرقل أحدنا في الآخر، وبهذه الطريقة نفقد الاحترام المتبادل.

سمعت عن رجل تاه في الغابة وكاد يموت من التعب والعطش أسفل شجرة، ولكن وحدته لاقت عزاء في الرؤى الغريبة التي كان خياله المريض، بسبب ضعف جسده، يجعلها تحيط به، واعتقدها هو حقيقية. نحن أيضًا، في قوة جسدنا وذهننا، يمكن استقبال رفقة مشابهة، رفقة للطبيعة، ونكتشف عندئذٍ أننا لسنا

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بمفردنا على الإطلاق».

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

جيران

في يونيو وصل الرعاة، وتغيرت وحدتي. أتوا في شاحنات، وعربات لنقل الماشية التي ظهرت في أحد الأيام في نهاية الطريق. تجري الأبقار إلى أسفل من المنحدرات، ربما عصبية بسبب الرحلة أو ربما شاعرة بالحماس بسبب كل تلك المراعي المزدهرة، كانت تنطح بعضها البعض، متجاهلة حدود المراعي وتذهب لتختبئ بين الصنوبريات الكثيفة. تركها الرعاة تفعل كما يحلو لها. على الرغم من النقلة الآلية فإن أكبرهم سناً ما زالوا يرتدون الجيليه الجلدي والقبعة الصوف، وهو الزي الذي استبدل الشباب مرايل طويلة واقية من الأمطار به. أخذوا جميعهم يراقبون الجبال في الأفق كأن لديهم الاحتياج إلى أن يعتادوا المنظر، فهو انتقال في النِّظام بالكامل بالنسبة إليهم: يغيرون منازلهم لمدة أربعة أشهر، ينقلون إلى أعلى حيوانات وعائلات، ويقضون حياة أكثر قسوة من حياتهم في الشتاء، إلا أنه كانت هناك سعادة واسعة في إيماءاتهم. كانوا يتبادلون الأخبار بلهجتهم وهم يضحكون باستمرار. بدا لي كأن سعادة الحيوانات نُقلت إلى الآدميين، الذين بالنسبة إليهم هم أيضاً

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الصعود إلى المراعي الجبلية يعني العودة إلى المنزل، ربما إلى أماكن طفولتهم، أو إلى أصول مهنتهم.

***

هكذا أصبح لدي الآن شيء أراقبه، بالإضافة إلى السحب التي تحمل، في تلك الأيام، أمطارًا لا تتوقف. بالقرب من الكوخ، وعلى الجانب الآخر من الوادي الذي أسكنه يوجد مرعى جبلي اعتقدته مهجورًا، قبل أن يصل أصحابه، ومن تلكَ الجهة وفي بداية يونيو كان يسوده اللون الأصفر للهندباء البرية، وعندما أستيقظ مبكرًا في الصباح أستطيع أن أراقب الراعي المُسن وهو ينقل حدود المرعى، بتحريك الأعمدة بضعة أمتار في اليوم ليوفر العشب. بعد ذلك بقليل يفتح الراعي الشاب باب الحظيرة، وعندئذٍ تتسارع إلى الأسفل سبعة عجول ونحو ثلاثين من الأبقار الناضجة، تجاه الخط الجديد للعشب المرتفع. جميعها تقريبًا ذات بقع كستنائية، تسودها بعض الأبقار السوداء أكثر رشاقة وذات عضلات. في المساء لا يتبقى شيء من ذلك المرعى. في حين أعد لنفسي العشاء، ترتفع من الحظيرة مواءات آمرة، ثم تظهر ثلاث أو أربع صفائح ضخمة من الحديد أمام الباب، ثم بعد ذلك بقليل ترحل عربة نقل رباعية لنقلها إلى مصنع

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الجبن، عندئذٍ ينتهي اليوم.

ولكن التغيير الأكبر، في حياتي اليومية، تسببت فيه الكلاب. نظرًا إلى أنني أضع لها جانبًا بقايا الجبن الجافة، كانت تأتي لزيارتي أكثر من مرة خلال اليوم (وفي الحقيقة، حتى إن كان ذلك لا يفعله رجل الجبل، فإنني من حين إلى آخر أستبدل بعض البسكويت بتلك البقايا، من ذلك الذي كنت أسميه بسكويت الأصدقاء). كانت لديها أجراس معلقة في رقبتها بفضلها كنت أسمعها تأتي من بعيد. وبسبب نظام هيكلي داخلي واحد من الثلاثة يمكث دائمًا في المرعى، في حين يبقى الاثنان الآخران حرين في التجول حتى اللحظة التي فيها عليها أن تعيد الماشية إلى الحظيرة، عندئذ يناديها الراعي الشاب، فتقوم بلعبة الفريق: تشكل دائرة حولَ القطيع وهي تنبح، وتعقر جناب الأبقار الأكثر كسلًا وتتبع غير المنتظمة منها وتدفعها نحو المنزل. كان مشهدًا رائعًا رؤيتها وهي تعمل.

ومن صيحات الراعي اكتشفت أن أسماءها هي بلاك وبيلي ولامبو. بلاك كان أكبرها سنًّا، من فصيلة الدرواس ضخم وأسود اللون، بستة أصابع في مخلبيه الخلفيين، ونُزعت أذنه اليمنى من يدري في أي معركة. لهذا قررت ألا أسميه بلاك ولكن

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

موتزو(15). يبدو جلياً أنه في نهاية تاريخه المهني، فهو يفضل ظلال الصنوبريات عن الأبقار، أو رائحة الحيوانات البرية التي يتبعها بكسل في الغابة السفلى. بيلي من فصيلة الكلب الذئب، عامل لا يكل، ولهذا التقينا أنا وهو مرات قليلة. عندما يأتي لدي يبدو كأنه يشعر بالذنب: يأخذ قطعة سالامي ثم يهرب بسرعة، ويسمح لي أن أربت عليه بصعوبة. لامبو الأصغر سناً، كلب الراعي الأسكتلندي، يهوى التقاط أفرع اللاركس من على مسافة بعيدة، ويحب أن أحك له فيما وراء أذنيه، وكان يترك لي الرائحة الجيدة للحظيرة في يدي. ما زال يتعلم المهنة، ولكنه في بداياته ومن حين إلى آخر يرتكب خطأ ما: في صباح أحد الأيام، بعد أمطار غزيرة، تمردت العجول السبعة وعبرت جميعها حاجز المرعى ملقية بنفسها على العشب المرتفع كمائدة حافلة، عندئذ أطلق الراعي الشاب صفارة قوية: انطلق بيلي على الفور ليطاردها، رآه لامبو وجرى خلفه، إلا أن موتزو مكث ليراقب الموقف من شرفتي، منتبهاً ولكن على أهبة الاستعداد، كعادته، كقائد مسن. جلست أنا بجواره لأستمتع بالعمليات. وفي المرعى كان بيلي يعيد بالفعل الهاربين في مجموعة، ولكن بعد ذلك تضايق لامبو كثيراً مع أحد العجول وأخذ يعقره وينبح خلفه، حتى هرب ذلك من جديد، والستة الأخرى

Telegram:@mbooks90

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

خلفه. جرى بيلي ليستعيدها، ليتكرر المشهد بحذافيره، أحدهما يستعيدها، والآخر يفزعها، والعجول المضطربة أخذت تركل وتهرب في كل مكان.

عندئذٍ، بيلي وقد بلله المطر تمامًا، نظر إلى العجول، ونظر إلى لامبو، نظر إلى صاحبه الذي كان يسب وهو يحرك مظلته، ثم دخل في إضراب متجهًا نحو الغابة. أخذ الراعي الشاب يصيح: بيلي! ولكن بيلي اختفى بين أشجار اللاركس ولم يره أحد. ولامبو يهز ذيله هناك بالقرب منه، بالنسبة إليه كان الأمر لعبة. أخذت العجول تأكل العشب المخصص لوجبة الغد، وهبطت أمطار كادت تجرفنا جميعًا، وتغسلنا بعيدًا عن الجبلِ مثل الأوراق الجافة، وفي شرفتي أنهى موتزو البسكويتة الخاصّة به، فرد ظهره، وأخذ يزمجر مستسلمًا لفكرة أنه الآن دوره ليتدخل.

في صباح اليوم التالي استمرت الأمطار، وقررت أن أطبخ معكرونة الشرائط الخضراء. جمعت أوراق القراص والسبانخ البري مِمَّا حول الكوخ، تركتها لتجف في آنية، ثم فرمتها وخلطتها بالبيض والدقيق، وعندما بدأت أفرد العجين بالمرقاق سمعت ضوضاء أجراس عالية وصراخ أحد الرعاة. نظرت من النافذة، واستطعت رؤية عجلين يهربان إلى أسفل. لم يكُن

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الراعي أحد جيراني، ولكن ذلك الذي يعرج بعض الشيء وكان يعبر من حين إلى آخر بجراره: كان الوحيد الذي يؤمئ إليّ بالتحية، على الرغم من أننا لم نتبادل قط أي كلمة. وبسبب مشكلة قدمه لم يستطع أن يلحق بالهاربين. كنت أراه هناك فوق، وسط المرعى، وهو يحرك ذراعيه ويسب. عندئذٍ نزعت المريولة وأطفأت الشعلة أسفل آنية المعكرونة، وأخذتُ العصا وخرجت، يغطيني الدقيق. عثرت على العجلين أسفل بعض الشيء، في أحد المروج في وسط الغابة. كانا يرعيان في هدوء. لم أكن أعرف إذا كانا سيطيعانني، رأيت فقط كيف يحدث ذلك، درت حول الأول وضربته بالعصا في جنبه، ورويدًا رويدًا، رغمًا عنه، بدأ يعاود الصعود.. تبعه الثاني، وبكل فخر صحبتهما حتى النافورة، وحبستهما في زاوية بين السور والكوخ، ثم انتظرت الراعي الأعرج آملًا أن يسرع بالحضور. ظهر بعد بضع دقائق على دراجة بخارية للطرق الوعرة، يقودها صديق له. ربط العجلين بحبل من القنب، وسألني كيف استطعت الإمساك بهما، أجبته بأن الأمر كان في غاية السهولة، وأنهما هما من قاما بكل شيء. ضحك، ورأيت أنه فقد أسنانه الأمامية، وقال إنه يكاد يعينني كحارس.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

كان اسمه جابريله، عمره بين الأربعين والخمسين، صعب تحديد ذلك بسبب يديه الضخمتين وجسمه الذي لحمّال، الملابس الرثة، والذقن غير المهذبة وجلده المحروق. من قريب يعرج بوضوح شديد، حكى لي أنه في العام السابق تعطلت فرامل اليد في الجرار، وانتهى هو أسفله في حين يقطع الحطب، والآن قدمه اليسرى متلاصقة بدعامة معدنية وبعض المسامير. كان يعرف عني كل شيء، في أي ساعة أشعل المدفأة في الصباح، ومتى أخرج إلى البستان لأجمع الأعشاب، وأنني تقريباً كل يوم أخرج لأجول. يراني من أعلى وهو يأخذ بقراته للمرعى: كوخه يوجد أعلى قليلاً من كوخي، ويبعد تقريباً ربع ساعة عن المدق، وبفضل مغامرة ذلك اليوم ربحت دعوة للعشاء في ذلك المساء.

لم أكن أصلح كثيراً كناسك: ذهبت إلى هناك في أعلى لأمكث بمفردي، إلا أنني لم أفعل شيئاً سوى البحث عن الصحبة، أو ربما ما أنا فيه من ظرف هو ما يجعل كل لقاء مرغوباً فيه وثميناً. بعد نحو شهرين من السكنى في الكوخ، ومع نهاية الربيع، أصبح موسم وحدتي على وشك الأفول.

في الساعة السابعة مر موتزو بحثاً عن البسكويت، وأخذ يشمني

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

في حين أرتدي الجينز وقميصي المربع الأكثر أناقة، فقد اعتاد رؤيتي بالبنطال القصير والكنزة المثقوبة، ولم يكُن يفهم. سألته: عم تبحث؟ ألا يمكنني أن أُدعى على العشاء أنا أيضًا؟ ثم أخذ يلعق حذائي، أخذت زجاجة نبيذ النيبولو(16) التي أحتفظ بها للمناسبات الخاصَّة، وحككت موتزو في رأسه، ثم اتجهت نحو المدق في طريقي لموعدي.

(15) الكلمة بالإيطالية mozzo وتعني «مبتور، مقطوع».

(16) Nebbiolo

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الصيف

فصل الصداقة والمغامرة

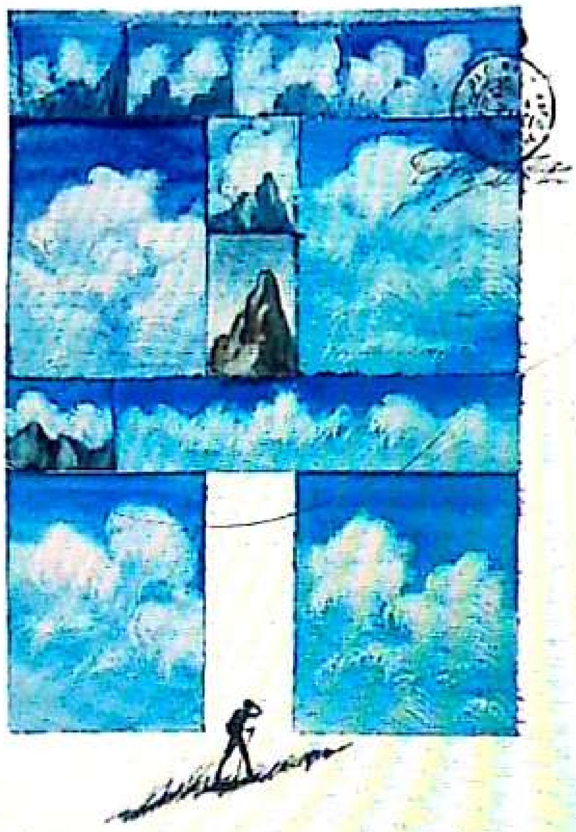

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أيها الراعي.. أين ترعى؟

«إذًا أنت فوضوي»، قال لي وهو ينزع الغطاء عن زجاجة النبيذ، في حين أحاول أن أشرح له ماذا ذهبت لأفعل هناك فوق. قلت له إنني لا أحب القواعد ولا رؤساء العمل، وإنني في المدينة أشعر بأنني محبوس في قفص، وإذا كان عليّ، لأعيش بالطريقة التي أفضلها، أن أمكث بمفردي في جبل، فأنا أوافق، بكل سرور، على الوحدة في مقابل الحرية التي يمكن أن تضمنها لي. فهم جابريله ما قلته تمامًا، إلى أن طرحت عليه سؤالًا سياسيًّا فعقد حاجبيه متجهمًا. كان يرتدي زيًّا عسكريًّا، ويكره الأجانب على الرغم من أنه لم يرَ منهم سوى القليلين جدًّا طيلة حياته، وأيضًا عندما يتحدث عن النساء يحب أن يبدو قاسيًا. إلا أنني على يقين بأنه أكثر فوضوية مني: فهو لا عائلة له ولا عمل ثابتًا، لا تلفاز، ولا سيارة، ولا قرضًا في البنك، لم يكُن بحاجة إلى نقود إلا ليشتري الطعام والشراب، ولا ينتخب، ولا يمكن الوصول إليه عن طريق شبكة الإنترنت، لم يكُن رقمًا في أي استطلاع رأي ولا تحقيقات عن السوق، ولم يكُن متورطًا في أي شيء. رجل كهذا، بنى وجودًا على

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الهامش ويعيش بطريقته، أكثر فوضوية مِمًّا استطعت أنا أن أتخيل في عصرنا الحالي، إلا أنني لم أستطع العثور على الكلمات لأقول له هذا. عندما أخوض في حوارات معقدة ينظر إليّ بتعجب، وعندما أستخدم كلمات صعبة يتوقف عن الاستماع إلي. هكذا كنت أرضيه. ربما أنت على حقّ، قلت. أنا بالفعل شخص فوضوي.

لم يكُن يقول «الأبقار»، كان يسميها لفظ «الأكوام»، أو «العاهرات» عندما تغضبه. ولم تكُن ملكه: كانوا يرسلونه فوق من السهل، في فصل الصيف، ليرعى في الجبل في أثناء موسم الرعاية الجبلية. ومِن ثَمَّ يستفيد جابريله من ممتلكاته الوحيدة: الكوخ، الجرار، الحظيرة، ومرعى تغطيه الثلوج لمدة ستة أشهر في السنة. في الشتاء يسكن في غرفة صغيرة في البلدة ويعمل في حلقات التزحلق. ولكن يشعر بالضيق في حياة الوادي العميق، كان بريًّا جدًّا ليعيش الحياة المدنية. يتحدث فقط بالصياح، كأنه بعيد جدًّا عن أي شخص. لا يستطيع أن يفعل أي شيء بهدوء. كان إصبع واحد من أصابعه أكبر مرتين من إصبعين في يدي، وكل شيء يصبح شديد الهشاشة بين يديه. أحيانًا في البلدة يستأجرونه لمدة يوم ليزيل بعض الحطام أو

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ليكسر بعض الأطنان من الحطب، ولكن قبل المساء يعود إلى كوخه على ارتفاع ألفي متر. فقط هناك فوق يعثر على المساحة التي يريدها: يبدو أنه ينتمي إلى الجبل مثل كتلة ضالة أو شجرة لاركس عمرها مئات الأعوام، نمت وسط مرعى، معرضة للشمس والرياح.

«لندخل «الأكوام» لتنام»، قال نحو المساء، ثم فتح باب الحظيرة على مصراعيه، وفتح ثغرة في السلك المكهرب، وبصبر أخذ يناديها: تعالي، تعالي، تعالي. وكانت واحدة واحدة من الماشية تتبعه بكسل. ولمدة النصف ساعة التالي أخذت تصل من الحظيرة أصوات السباب والصفع: في اللحظة التي ربطها فيها بدأت الأبقار في التمرد، تبتعد وتبدأ في تبادل الأماكن فيما بينها، وهكذا لا بد من دفعها بالأكتاف وشدها من أطواقها في تلك الحرارة الخانقة والرطوبة بسبب أنفاسها وعرقها. ثم لحسن الحظ يحلب جابريله بعضًا منها، وهكذا يعثر على بعض الهدوء. كان عملًا يهدئه كثيرًا. هناك من يحلب الأبقار وإبهامه منحنٍ داخل قبضته، شرح لي، وهو يستخدم المفصل ليضغط على الحلمات، ولكن لم يكن هذا الأسلوب يعجبه لأنه رقيق جدًا، فهو يفضل استخدام كف يده. ويترك دلو الحليب بعد ذلك

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

للعجول والكلب، يحتفظ منه بالقليل فقط، ما يكفي قهوته الصباحية. عندئذٍ أغلقنا الحظيرة، وذهبنا أخيرًا لنتناول العشاء.

كان منزله عبارة عن حجرة مغطاة بالخشب، ثلاثة أمتار في ثلاثة، تحتوي على فراش نقال، مدفأة، مائدة، ليست فيها مياه جارية ولا حمام. حولها توجد ستة أو سبعة مبانٍ مهدمة، يستخدم هو أحدها كمخزن، والآخر لقطع الحطب وتخزينه. الحجرة من الداخل مكدسة بأشياء: على الجدران توجد مجموعة من الأجراس والأطواق، الكؤوس جوائز معارك الأبقار، فتيات عاريات على نتيجة روزنامة شركة الجرارات. فاترينة من الكريستال، قطعة أثاث من السبعينيات ثلاثية الألون مقطوعة في النصف طوليًّا لأن المكان لم يسعها، خزانة صغيرة وأقدم بكثير ملصقة بالجدار، في الحجرة بابان فقط، أحدهما ثابت ليغلق ثغرة في الحجر. الأطباق من الخشب، والآنية من النحاس. الأدوات الخاصَّة بصناعة الجبن معلقة فوق المدفأة.

على العشاء حدثني كثيرًا عن الأزمنة الماضية. كان رجلًا سعيدًا بطبيعته، ولكن الهجران تسبب له في الحزن. يتذكر كيف اعتاد الذهاب إلى أسفل مع أمه وأخواته، لكنه الآن أصبح وحيدًا. من بين الصور المعلقة على الجدران كانت صورة

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

له مع زوجته وأبنائه، ولكنني خشيت أن يكون هذا زرًّا مؤلمًا وفضلت ألا ألمسه. ولكنني سألته عن الصورة التي له مع بقرة سوداء حيث يضحك ويحتضنها من رقبتها: كانت مرجانة، بقرته المفضلة، التي ذهبت إلى الجزار منذ أعوام كثيرة. «لم يكُن ينقصها سوى أن تتحدث»، قال لي. الآن يوجد «لوبو» ليسليه، كلب راعٍ يتبعه إلى أي مكان: يقظ، متحفظ وحنون، وأذكى كلب امتلكه. عندما سمع اسمه فرد «لوبو» أذنيه من مرقده بجوار المدفأة، نظر إلينا، ثم أتى ليحصل على بعض التدليل وجبن التوما.

في الحكايات كان جابريله يعيش في عالَم مفقود، الذي فيه، هناك في أسفل في القرية، كانت كل المنازل مسكونة وعاملة. رجال يعملون في الحقول والحظائر، والصبية في المراعي، النساء يعتنين بالحيوانات المنزلية. يوجد طريق للماشية يستغرق ساعتين للوصول إلى البلدة، يتناولون البولينتا واللبن في الغداء والعشاء (لهذا كان يكره البولينتا، ولم يعُد يستطيع أكلها). تكفي بضعة أيام لينسى المرء المدنية، وأن ينزع الإنسان عن نفسه الأحذية والبدل ويعود مرة أخرى إلى حالته البرية. إلا أنه حرص على أن يشرح لي أن الراعي berger، هو ذلك

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الذي يرعى الخراف، أما بالنسبة إلى الأبقار فهناك كلمة أخرى: vacher، وليس هذا فارقًا هينًا، فالراعي شخص جوال، يرعى وينام حيثما استطاع، في حين راعي الأبقار شخص يميل إلى الاستقرار، له ما يخصه من المزارع والمنزل والحظيرة.

ثم، في أثناء حديثنا، اكتشفت أن ذلك العالَم لم يره هو فعليًّا. في طفولته، هُجرت القرية بالفعل، وفي المنازل الفارغة اخترع هو ألعابه مع بعض الصحبة النادرة من مرعى جبلي قريب. لم تكُن لديه ذكرى عن الجبل وهو مسكون، ولكنها أسطورة العصر الذهبي البائد الذي به يُغذون أحلامهم السعيدة، كان سيحب أن يأتي إلى أعلى مع أبنيه، اللذين كانا في سن الثامنة عشرة والعشرين ويعملان كبنائين، ويحضر معه الدجاجات، وحمارًا، وبعض النعجات، وخنزيرًا ليذبحه في الخريف. تحدث كثيرًا عن أن يبتاع بعض الماشية الكافية ليعيش مستقلًّا، إلا أنه لم يكُن يملك سوى العشب، به يسمن أبقار الآخرين، وأحلام يقظة ليلًا لا تنتهي على الإطلاق.

نظرًا إلى أنني كنت أحب الطهو وهو لا، ونظرًا إلى أن كلينا يستحسن تناول العشاء في صحبة آخر، أحيانًا كنّا ننظم أمورنا هكذا: أصعد أنا إلى منزله في نحو السابعة، آخذ المفتاح الضخم

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

المخبأ أسفل الحجر، أدخل وأشعل الموقد، ثم أذهب لغسل الأطباق في النبع، حيث وضع جابريله حوض حمام ليستخدمه هو لاستحمامه ولغسيل الملابس والأواني. هناك أعثر على الصابون والفرشة والسلك المعدني. كان تأثيرًا عجيبًا يحدث لي جراء جلي الأواني على ضوء الغروب، مستخدمًا المياه المثلجة، ومن دون أي مسحوق تنظيف، فهناك الكثير لحكه، ولكن أين كان سيمكنني العثور على مغسل أفضل؟ تتلصص حيوانات الغرير عليّ في حين أملأ حلة المعكرونة بالمياه، ومن وراء الأشجار رأيت خطم أحد الأيائل. عندما أعود إلى المنزل يكون الموقد قد سخن بشكل جيد، أشغل الراديو، وأضع المياه على النار ثم أجلس لأقشر البطاطس. سباغيتي بالطماطم، بطاطس مغلية بالجبن، وأحيانًا قطعة مقانق، كانت هذه وجباتنا اليومية. في طريق عودته من الحظيرة، يمر جابريله على المخزن، حيث كانت توجد أربع دماجانات من نبيذ باربيرا الإيطالي الأحمر، التي لا بد أن تكفيه طوال الصيف، إذا لم يحطم إحداها وهو يحاول أن يضع سدادتها لكمًا، وأخرى اصطدمت بالزجاج الأمامي للجرار وهكذا أصبح كالسيارة المكشوفة. كانت هذه نماذج لحظه التعس.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

عندما يأتي هو عندي يجلس دائمًا في المكان نفسه، على المصطبة وظهره مستند إلى الجدار لينظر إلى المنزل. «أنت بالفعل تعيش جيدًا»، يقول لي وهو ينظر حوله، لأنني لدي مطبخ حقيقي وثلاجة، بل وأريكة، ويوجد أيضًا حمام ومياه جارية، والجدران مستقيمة، والسقف كامل، ولا أحتاج إلى أن أستلقي أسفل المائدة عندما تمطر. يحضر لي دائمًا قطعة من الجبن وزجاجة كبيرة من النبيذ. في إحدى الأمسيات حضر ومعه دجاجة مشوية، لا أعرف من أين أحضرها. وفي مرة أخرى ذهب ليعمل لدى أحد الأصدقاء في السهل، وعاد ومعه خمسة كيلوجرامات من الأرز وذخيرة من الحكايات الجديدة. الأمسية الماضية في النادي الليلي مع الفتيات الروسيات، صف الجرارات لجون ديرى الذي رآه في المزرعة، الطفل الذي أضحكه وهو يسأله: لماذا يطلقون عليك اسم رامبو؟ ولماذا أنت قوي هكذا؟

وفي النهاية لديه طريقة خاصّة للانصراف، نوع من الاحتفالية، واستغرقني بعض الوقت لأفهمها. في المرة الأولى قال: «حسنًا، يبدو أنه قد حانت ساعة الرحيل»، وهكذا نهضت لأفتح له الباب وأصافحه. نظر إليّ بتعجب وسألني: هل أنت متعجل؟

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أجبته، أنا لا. وأغلقت الباب وجلست من جديد.

في تلك الأمسية اكتشفت أنه، قبل أن ينصرف بالفعل، كان لا بد أن يقول: «الآن سأذهب»، على الأقل خمس أو ست مرات، ويمكن أن تمر ساعة في هذا الأمر، قصة أخرى، وزجاجة نبيذ أخرى. بطبيعة الحال تعلمت أن أفعل الشيء نفسه أنا أيضًا. عندما أكون هناك فوق عنده، في لحظة ما أشد ظهري، وألقي نظرة على الظلام في الخارج وأعلن: الآن سأذهب.

يجيبني، خذ قطعة جبن أخرى، وهو يتجاهل كلماتي. هل نسكب زجاجة أخرى؟

لم لا؟ أقول أنا. (هناك فوق يتراجع الشراب والطعام إلى الحالة البرية: فنسحق ضلع الخنزير ونسكب زجاجة النبيذ). وكنت أؤجل رحيلي ببضع كؤوس أخرى.

في التاسع والعشرين من يونيو، في عيد القديس بطرس، شفيع المراعي الجبلية، وبعد العشاء صعدنا معًا حتى الحظيرة. كان جابريله قد قضى فترة بعد الظهيرة يملأ المقطورة بالأغصان

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الجافة، التي بدأت تتراكم بالقرب من صخرة كبيرة. كانت هناك كومة ارتفاعها أعلى من متر. وفي نحو الساعة العاشرة أشعل النيران بأسلوب رجال الجبل: ألقى فوقها بنصف حاوية بنزين، أشعل الثقاب واشتعلت النيران في لحظة. مع ذلك الصمت التام حولنا أدركت، للمرة الأولى، كيف لحريق أن يصم الآذان، وكيف تنتشر حرارته التي لا يمكن تحملها أيضًا على بعد عدة أمتار. جلسنا على العشب لنراقب الأشكال المظلمة للجبال، باحثين عن نيران أخرى تشبه نيراننا، وأحصينا، ثلاثًا، ثم أربعًا ثم خمسًا، بعضها في أماكن لم نكن نعرف حتى أسماءها. كانت تلك الشعلات الصفراء المرتعشة تبدو كأنها تقول: أنا هنا. أنا أيضًا، أنا أيضًا، أنا أيضًا. تجمع من الوحدة يتلألأ لبضع دقائق بالكاد، ثم يبدأ في الخفوت ثم تُطفأ الواحدة تلو الأخرى. نيراننا أيضًا سكنت، وعدت لأسمع من جديد صوت العشب، وبقبقة البحيرة، وأنفاس الأبقار تجتر في الحظيرة.

أدركت أيضًا أن الجو بارد، الآن وقد اعتدت حرارة النار. وهو يصافحني أعارني جابريله كنزة وقال لي: «حاول أن تأخذ طريق المرعى»، وكان شرفًا عظيمًا الذي منحه لي، فعن طريق المدق سأقوم بدورة طويلة، في حين عن طريق المراعي كنت

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

سأصل مباشرةً إلى النافورة: نزلت في الظلام، وأنا أفتح ذراعي للرياح وأشعر بالأشواك تدغدغ كفي يدي، وكانت الأيائل تطارد بعضها البعض في الغابة وهي تطلق نداءاتها الخشنة.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تِبْن

وحل شهر يوليو. عندما وصل العشب إلى ارتفاع الجانبين وبدأ في الاصفرار، بدأت تبرز في كل مكان في المرعى آلات جز الأعشاب والجرارات، القاطرات والمكابس. يعمل الجميع في التبن، من المسنين إلى صبية المراعي الجبلية، تعبئة جماعية أمامها كان من المستحيل البقاء مكتوف الأيدي، وهكذا أخذت أساعد ريميجو وأمه. لم يكُن الأمر هو افتقادي كثيراً لعائلتي التي تركتها في السهل. كانت سنها تقريباً الثمانين، شديدة النحافة، لا تكل مطلقاً، خشنة مثل القشرة، وأنا شخص من المدينة لدي نوايا عظيمة وجلد رقيق، كنا نكوّن معاً زوجاً عجيباً خلف الجرار الذي يقوده ولدها. كنا نقوم بالتعبئة في نهاية بعد الظهر، عندما تكون الشمس قد جففت التبن المجزوز في اليوم السابق. الآن بدأ العمل يساوي الجهد المبذول فيه، ولكنني كنت أرى من إيماءات المرأة كم هو عمل ثمين: كانت تمرر الجرافة بعد التعبئة، ولم تكُن تترك ولا خيط عشب واحد، وهي توبخني لتلك التي كنت أفقدها. وكان ريميجو ممسكاً بالمقود يكتم ضحكته. يعجبه أن آخر يتعرض لهذه المعاملة بدلاً منه. في البداية أشارت إليّ

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

والدته أين كنت أخطئ، ثم في النهاية استنتجت أنني لا أعرف الجرف وسلمتني الأعمال الثقيلة، أن أحمل بآلات التبن على الناقلة، وكان ذلك العمل يناسبني أكثر: كنت آخذ اثنتين في المرة بسبب الأشواك التي تقطع يدي، ألقي بهما في الناقلة ثم أصعد على الفور لأرصهما جيدًا. وهكذا حصلت على بعض الاحترام، وأنا أعرق وتغطيني الأتربة، مكتسباً جسأة العامل، ورقبة الفلاح المحترقة، الجلد الملتهب بسبب التبن الذي ينخر فيه.

•

وبين حمولة وأخرى كنت أرفع رأسي وأنظر إلى الحقول حولنا. كان اللون البني المحمر لتلك التي لم تُجز بعد، واللون الأشقر حيث التبن يجف في الشمس، والأخضر الفاتح الذي بدأ يتخذ مكانه في النهاية. كان جميلًا رؤية الجبل يُعتنى به كحديقة: ومع نباتات الزعفران التي تنبت بين العشب الجديد، معتقدة أن الربيع قد عاد. إلا أن زعفرانات الجليد الذائب كانت بيضاء مثل سحب أبريل، في حين الأخرى ليلاك وبنفسجية أسفل سماء يوليو، والآن لم تعد هناك يرقانات ولكن طنين حشرات في الحر الشديد للصيف. من حين إلى آخر تذهب أم ريميجو لتبتاع شيئًا ما من البار لتنعشنا: عصير برتقال أو مشروبات غازية لنا، وبعض البوظة لنفسها.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

كان ريميجو يعترض: ألا يمكن أن تحضري الجعة؟ يجلس على كرة من التبن، بين سقسقات الجنادب، وهو ينظر إلى العبوة كأنه لا يعرف حتى من أي مكان يفتحها.

تجيبه أمه، بحدة: بالتأكيد لا ترغبون في أن تسكروا. وفي «أنتم» تلك أوجد أنا أيضًا، أو من يدري، ربما الرجال بصفة عامّة.

كانت توجد هضبة أمام الحقول التي نعمل فيها، ممر متسع ومنخفض عن طريقه نذهب على الأقدام إلى الوادي المجاور الذي أراقبه من حين إلى آخر وأنا أفكر في شخص ما. لا بد أنه ما زال يسكن هناك، ولا بد أنه ما زال يعمل كمرشد ألبي حيث لا يمكنني أن أتخيله يعمل في مهنة أخرى. كان اسمه لورينزو، رينزو، على اسم قديس شهر أغسطس وعديد من القرى، كان معلمي في الجبل: الأول الذي ربطني في حبله، وأرشدني أين أضع قدمي على الصخر، معلقًا بعض مرابط السحب في قدميه حتى أتبعه على الجليد. ولكن، في طفولتي، أكثر من كونها مدرسة معدات وتقنيات تسلق الألب، كانت بالنسبة إليّ طريقة لمواجهة الخوف والتعب والبرد، والبعد عن المنزل. مواجهة معاناة الجسد أيضًا، لأنه بمجرد الوصول إلى ارتفاع أكثر من ثلاثة آلاف متر أبدأ في الشعور بالدوار:

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الشعور بالغثيان يقلب لي معدتي، وعيناي تضعفان ويغزوني شعور شديد بالحنين، كأنه شعور بالهجر، وكان هذا دوار الجبل الحقيقي بالنسبة إلي. شارك رينزو معي تلك اللحظات. في حين أبكي وأتقيأ، كان هو الشخص الذي يتحدث معي بعذوبة ويقنعني بأن أستمر في التقدم إلى الأمام. يفعل ذلك بطريقة جيدة جدًّا إلى حدّ أنني كنت سأتبعه إلى أي مكان.

ثم شهدت علاقتنا مرحلة سعيدة. في سن السادسة عشرة، ذهب عني دوار الجبل وبدأت أستمتع بمغامرتنا، في كل صيف يصحب رينزو مجموعة من الصبية في ملجأ جبلي على ارتفاع كبير، ليقيم هناك مدرسة تسلق الألب لمدة أسبوع.

نتسلق بفأس الجليد والنعال ذات المسامير على الكتل الجليدية لمونتي روزا، وننزل إلى عمق الشقوق الجليدية لنمثل عمليات الإنقاذ، نجري إلى أسفل على سفوح الجليد ونحن نجذب جريحًا وهميًّا على زلاجة، ونقضي متجاورين تلك الأمسيات الجماعية على القمم. بالنسبة إلينا لم تهمنا القمم، تهمنا أكثر الجدران والقمم الوعرة، وفي تسلقها كأننا نلعب. كنت في هذه المرحلة قويًّا، وعلى الجليد أشعر بأنني في منزلي، وأحلم بأن أصبح مرشدًا للألب بدوري.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

عند عودتنا من الملجأ الجبلي أقلد معلمي: أحاول أن أتحدث مثله (قليلًا)، وأن أسير مثله (بخفة، بلا وزن تقريبًا)، ويكون لدي سلوكه نفسه أمام الخطر، مثل عاصفة جبلية (هو يصفر). تعلمت جيدًا جدًّا حتى إنني في إحدى المرات عندما كنت أتمرن للذهاب إلى الهيمالايا، أتى رينزو يستدعيني لنخوض معًا سباقًا حتى ارتفاع أربعة آلاف متر ثم العودة، لمدة بضع ساعات، نحن الاثنان فقط. حبل فقط، وأصوات خطواتنا، لا حاجة إلى السؤال أو إلى إعطاء أي تعليمات. كان الصعود إلى أربعة آلاف متر سهلًا، في نهاية الأمر. دخلنا تقريبًا على الفور في السحب ولم نعد نرى أي شيء حتى المساء، فقط الأبيض غير المميز للثلج والضباب، إلا أنها من أجمل الذكريات التي أحفظها عنه، رحلة الهيمالايا الخاصّة بنا.

تلك المرة لا بد أنها كانت الأخيرة التي فيها ذهبنا إلى الجبل معًا، ثم أعتقد أن أماكن أخرى دعتني، ليقودني فيها معلمون آخرون. لم يستطع أحد مثل رينزو أن يحظى بثقتي غير المشروطة. مرت خمسة عشر عامًا على هذا: من يدري إذا كان يتساءل عن مكاني، ومن يدري إذا كان حاول أن يعرف أنني هنا، فيما وراء الهضبة، أعيش كناسك في أحد الأكواخ. في

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الواقع هو أحد من تسببوا في حضوري إلى هنا في الأعلى.

الآن أشارك أفكاري تلك مع ريميجو، الذي أجد سهولة في التحدث معه. استقرت الثقة المتبادلة بيننا منذ أول لقاء، يوم الكتب والثلج، وزادت بأن غطانا التراب في يوم التبن. كنا نسير ذهابًا وإيابًا في الحقول، هو يقود الجرار، وأنا أجلس على الناقلة المترجرجة. في مخزن التبن أخذنا نقذف الكرات أحدنا للآخر ونرصها في كومات ارتفاعها يصل إلى ثلاثة أو أربعة أمتار. في إحدى الأمسيات بعد انتهاء العمل دعاني لديه لنشرب، مشروبًا من تلك التي نهتنا الأم عنها، وفي غرفة المعيشة فوجئت بالعثور على آلة كاتبة. موديلًا قديمًا محفوظًا حفظًا جيدًا، وعلى البكرة توجد ورقة مكتوب عليها سطر واحد: من يدري إذا كنت سأستطيع الكتابة مرة أخرى كالسابق. جمدتني العبارة: ما دخل هذا الرجل الجبلي بالكتابة؟ ثم شعرت باضطراب أعمق لأن هذا الشك يشبه شيئًا أشعر به أنا أيضًا، حيث إنني لم أكتب شيئًا منذ شهور وكنت أخشى ألا أعود إلى الكتابة مرة أخرى. عندما سألته معنى هذا، شرح لي أن هذه الورقة موجودة هنا منذ عشرين عامًا، في الحقبة التي توفي فيها أبوه، ولم يمسك بالآلة الكاتبة منذ تلك اللحظة.

Telegram:@mbooks90

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أخذت أستمع إليه بالاحترام الذي يشعر به الشخص عند الدخول في حيوات الآخرين، الشعور نفسه بالخجل. كان والد ريميجو صيادًا، بنّاء منازل، وراوي قصص. منذ طفولته كان يصحبه إلى الغابات ليزرع الفخاخ للحيوانات ذات الفراء، وعلى الثلج يعلمه التعرف على آثار الثعلب والنمس وابن عرس. بعد هذا بأعوام علمه فن إسقاط الجدران بأن أخذه كعامل في مواقع البناء. كانا مرتبطين جدًّا -ريميجو ابنه الوحيد، ولم يكُن في البلدة صبية آخرون- حتى دمر الكحول علاقتهما: أخذ الرجل المُحب والاجتماعي إلى حدّ ما يشرب كثيرًا حتى مرض مرضًا شديدًا. تغير طبعه، أو ربما يكون الابن، عندما كبر، تحول إلى شخص منغلق وتصادمي، ومع ذلك الأب السكير كان يتشاجر فحسب. يراه وهو يهلك نفسه شيئًا فشيئًا، يصحبه إلى ومن المستشفيات، وفي النهاية كان عليه أن يجده على الحقل حيث ذهب ليموت. ولم يسامح نفسه قط أن كلماتهما الأخيرة كانت كلمات غاضبة.

الآن ظلت لديه غنائم الصيد، الحراس الداكنة للحجرة التي فيها نتحدث: أقدام شامواه مستخدمة لتعليق السترات، قرنا وعل أسفل مصطبة خشبية، نماذج مُحنطة لنمس وابن عرس. ريش

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الصقر الذي أطلق عليه الأب «النيران» كنوع من التحدي، والذي وهو يحتضر تشبث بذراعه حتى جرى ريميجو وأزاله من فوقه، وهو يستخدم كل قواه لينزع المخالب. منذ تلك اللحظة كره الصيد. لم تنتقل إليه «الهواية- الشغف»، كما يسميها الصيادون مع البنادق.

ولكنه احتفظ بميراث آخر. قبل أن يموت بفترة قصيرة ترك له الأب أطلال كوخ في قلب مرعى. حظيرة صغيرة في أسفل وحجرة في أعلى، السقف من ألواح اللاركس المركبة وغير متساوية، الجدران رائحتها دخان ومعشقة بالشحم. لم يضف أي كلمة لتلك العطية الغامضة. ثم مات. بعدها بأعوام عثر ريميجو بمفرده على المعنى، وليخفف مشاعره بالذنب أخذ صيفين طويلين ليعيد ترميم الحطام. قرر أن يعمل بمفرده، بلا عمال ولا آلات، يحفر الأرض بقوة الجاروف ويرفع قوائم السقف بواسطة مجرى من الألواح، وسلك، والجرار. كانت أشجارًا أسقطها هو بنفسه في الغابة، اختارها بعناية مثل كل شيء: كل خشبة وكل مسمار وكل حجر في المنزل لكي يصبح هذا العمل مصنوعًا بقواعد فنية، حسب تعليم أب بنّاء.

ثم انتهى منه وقضى فيه يومًا واحدًا، ثم أدرك أنه لن يتمكن أبدًا

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

من السكنى فيه. كثير من الوجود بين تلك الجدران الأربعة ليتمكن من النوم في هدوء، وهكذا تركها للإيجار. من الأفضل ترك المنزل المسحور لشخص لا يعرف أي شيء عنه. بعدها بعشرة أعوام وصلت أنا، بحثًا عن مكان أمكث فيه بمفردي، وها هي القصة التي التقطتها على أمل أن أستعيد قدرتي على الكتابة.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ماعز

في الصيف تختفي الحيوانات البرية. السبب في ذلك يعود إلى كل أولئك البشر الذين يدؤون في الطرق على المدقات، ومِن ثَمَّ يدفعونها إلى مناطق وعرة. كنت أقابل بعض تلك المجموعات كل يوم حول المنزل، وكانت تبدو لي صماء عمياء عن المناظر الطبيعية التي تعبرها، تسبب في كثير من تلك الضوضاء تجعلني أسمعها حتى قبل أن أراها، إلى حدّ أن رائحة العطور الكيميائية الخاصّة بها تصدمني عن بُعد. كنت أسأل نفسي: هل أصبحت أنا من لديه مشكلات مع باقي المسكونة؟ أو هم الذين لا يعرفون كيف يعبرون على الأرض دون أن يغزوها؟ كانوا يهجمون على الغابة بعنف الروائح والألوان والأصوات، وكان سكان الغابة يحمون أنفسهم بأن يبتعدوا.

أفتقد جيراني: الأرنب البري والثعلب والأيائل. وهكذا في صباح أحد الأيام استيقظت في السادسة، تجرعت بسرعة فنجانًا من القهوة وخرجت في جولة طويلة. لم آخذ معي حقيبة الظهر ولا الزمزمية ولا الحذاء الضخم، فقط عصاي وكان حذاءاي

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

خفيفين كالرياح. بعد ثلاثة أشهر هناك فوق، كنت أشعر بأنني في أحسن حال: عبرت الغابة، والمراعي الأولى، كوخ جابريله وخنادق المرموط، والقرى المهجورة والمتهدمة. توقفت عند المجرى لأشرب، ثم عبرت بسرعة أيضًا المروج العالية: في السابعة لم تكُن أمامي سوى الصخور، البحيرات التي صنعها ذوبان الثلج، والثلوج الأخيرة. كنت أتنفس الهواء النقي للصباح، قبل أن تبرز الشمس من خلف المرتفعات ويبدأ اليوم بالفعل. لم يبدُ أن أحدًا سبقني.

وعلى الصخور أبطأت، متوخيًا الحذر بألا أحرك أي أحجار لكيلا أتسبب في ضوضاء. عندما وصلت إلى القمة حالفني الحظ: لا بد أنني كنت أسير في عكس اتجاه الرياح، أو ربما أصبحت رائحتي كالمعيز أنا أيضًا، إلا أنني رأيت، هناك في أسفل في الوادي الكبير، زوجي شامواه على حقل ثلج صغير. فاجأتهما وسط لعبتهما السرية. كان كل شيء حول المنطقة الصخرية قد بدأ يفتر، وتحول الثلج إلى بقع صغيرة جدًّا من بحيرات جليدية ولامعة، وكان حيوانا الشامواه يدوران على بطنيهما، وظهريهما، وجنبيهما، وهما يستمتعان بتلك الذكرى للشتاء. كانا يتزحلقان إلى أسفل لبرهة، ثم يقفان على أقدامهما ويعودان إلى قمة حقل

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الثلج، حتى استشعر أحدهما الخطر، فرد أذنيه، واختبأت أنا بين الصخور وحاولت أن أمكث في سكون، ولكن الآن شيء ما أخافهما. رحل أكثرهما حذرًا أولًا، ثم تردد الآخر في اتباعه كأنه حزين على تلك اللعبة التي لم تكتمل، ثم ببضع قفزات رشيقة اختفيا في الصخرة.

استمررت في الصعود، من يمكنه أن يوقفني الآن؟ الآن أصبحت على القمة بين وادي حياتي، أسير على صفائح من الصخور كسرها الثلج، وعلى تلك الطحالب الطرية جدًا التي تكون على ارتفاع الثلاثة آلاف متر. من جهة مفترق المياه، ذلك الخاص بسن النضج، كانت السماء لامعة، بلون أزرق مكتمل حتى بدا كأنه ذو كتلة وحجم. ومن جهة مكان الطفولة تتصاعد نفحات من السحب تتموج ثم تذوب عند قدمي. هناك قضيت عشرين عامًا، وهنا الأشهر الأخيرة: واديان يحفرهما نهران، ونهران وُلدا من الجبل نفسه. كان ذلك الجبل، المونتى روزا، الذي يقع الآن أمام عيني، هو ما يجمع حاضري وماضي.

ثم رأيت بعض التكوينات القاتمة، أشكالًا تتحرك على الصخرة المشقوقة. كان هناك قطيع صغير من وعول الجبل.. لم تكُن حذرة مثل الشامواه، لم يصطدها أحد منذ قرن وتوقفت عن

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الخوف من الإنسان. كانت هناك فوق، على القمم الوعرة والحادة، لأنها تحب أن تراقب مملكتها من أعلى، في الرياح والضوء الساطع. كان القطيع مكونًا من وعل ضخم كبير، مسترخيًا على الحافة في وضع عظمة يليق بالزعيم، وأربعة وعول شابة قلقة يستفز أحدها الآخر، وتيس مسن ومتعب، يتحرك بصعوبة. كانت ذقنه جرباء، وله قرنان لم يعد يحتمل وزنهما، يجبرانه على أن يعرج وهو يسير منحني الرأس. بمجرد أن لمحتني، نهض قائد الوعول وأتى ليضع نفسه بيني وبين باقي القطيع. أخذ يحدق إليّ في حين يصدر أصوات المعركة، صوتًا كأنه ينطق حرف «ف» مطولًا، وينفخ ملء رئتيه. قرناه طولهما متر تحملهما عضلات قوية، يكفيه القليل جدًّا ليطردني من بيته، بل ومن هذا العالَم كله. ولكنني كنت أحاول أن أخبره أنني أتيت في سلام. قفز الصغار منها على حجر محتمين خلفه، في حين ليصل إليه المسن كان عليه أن يدور دورة كبيرة. جلست على الأرض ومكثت في سكون للحظة، حتى قرر قائد الوعول أنني عدو ممل، نخر للمرة الأخيرة وأخذ يقرض في الطحالب النامية بين الصخور. أخذ اثنان من الشباب يتعاركان بالقرون، للتدرب على موسم التزاوج: ينهضان على الكفوف الخلفية ويترك كل منهما نفسه ليسقط على غريمه، مستخدمًا كل ثقله ليمنح السقطة

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

قوة، وينتج بقرنيه ضربة جافة، كأنها معركة بالحجارة بينهما. الآن المسن هو الوحيد المهتم بأمري: جثم أمامي، على بعد ثلاثة أو أربعة أمتار، يراقبني في حين يمضغ، ومن حين إلى آخر يحك ظهره بقرونه. أحصيت العقد فكان عددها نحو خمس عشرة: خمسة عشر عامًا قضاها يجول في الجبال، بلا أعداء، ودون أن يهبط قط إلى الوادي. فكرت: يا لها من حياة جميلة. من يدري إذا كان هذا هو صيفه الأخير، أو أنه سيجتاز بأوجاعه شتاء آخر. من يدري أي الأسئلة التي يتساءلها هو عني.

ثم نظرت إلى أسفل في الهواء الصافي للساعة الثامنة صباحًا. استطعت أن أرى بوضوح الطرق في الوادي العميق، حيث لا تصل الشمس إلا بضع ساعات. عالَم الظلال تلك يبدو كأنه في كوكب غريب: بما عليه من سيارات في حالة ذهاب وإياب بين البلدان التي نمت بلا مقياس، وأحياء المساكن، والفيلل التي تمتد كأنها ضواحٍ مدنية، ثم كهوف الرمال والصخور الواقعة على الأنهار، ساحات التزحلق التي تقطع الغابات، وأماكن توقف العربات أسفل المباني، ومواقع البناء في كل مكان. نوع من العمالة المنتشرة، مكرس بجملته للإزالة والتمهيد والاحتلال: هذا ما تبدو عليه الإنسانية من فوق قمم الجبال،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

حيث يكفيك لتعيش أن تمضغ بعض العشب وتستلقي في الشمس. راقبت المنزل الذي سكنت فيه في طفولتي، بل بالحري مجموعة الشقق التي حلت محله. لم يعد مسكن طفولتي له وجود منذ أعوام، وبدا لي هذا لحسن الحظ. كانت هناك رافعة مزروعة في قاعدة أسطوانية من الأسمنت في الساحة، وهكذا تساءلت ماذا حدث لشجرة الكرز البرية الضخمة التي كانت موجودة يومًا ما هناك. تقاطعت من جديد نظراتي مع الوعل المسن، والآن سمعت بوضوح أفكاره، وكدت أجيبه بطلب الصفح.

نزلت دون عجلة، في ذلك الصباح، بشغف تجاه المكان الذي أنا بصدد العودة إليه. الكوخ، وما جمعته من آثار، الكشاكيل التي لم أستخدمها، والكتب. حجرة مملوءة بي، في حين في الخارج يقدم الجبل نفسه، خامًا، في كل اتجاه. ما فائدة وجود منزل؟ كان سيعجبني أن أفعل كما يفعل رعاة زمن ما، وهم يجولون من مرعى إلى آخر ويتوقفون للنوم في الملاذات التي توفرها الصخور. كنت أقابلها من حين إلى آخر في أثناء جولاتي الاستكشافية: كتلًا بارزة نُظفت الأرض تحتها، وأحيانًا مغلقة بجدران من الصخور الجافة. كان لها اسم، باللغة الدارجة،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

كنت قد سمعت ريميجو ينطقه في حين كنّا نعمل في التبن. ما «البارما»؟ كنت قد سألته. فأجابني: صخرة لتحتمي أسفلها عندما تُمطر.

هناك بجوار الكوخ كان النهار قد انتصف، وكانت هناك عائلة قد فرشت غطاء على العشب أمام المنزل: طفلان يلعبان بأن يبللا نفسيهما في النافورة، والأم أخرجت أكياسًا وحاويات، نظر إليّ الأب بتلك النظرة المكفهرة التي يتبادلها الرجال عندما تكون هناك أرض أو عائلة عليهم الدفاع عنها. ربما نظرت إليه أنا أيضًا بالطريقة نفسها.

«معذرة، هل المنطقة ملكية خاصّة؟» سألتني زوجته، الأكثر لطفًا.

قلت: لا لا إنها منطقة للجميع، تفضلا.

وفي المنزل نزعت حقيبة الظهر من فوق المسمار حيث وضعتها. ألقيت بداخلها ببعض الملابس، نسيج واقٍ من الأمطار، حقيبة النوم، قنينة نبيذ والمعلبات التي كانت لدي في المطبخ، الولاعة والسكينة، ورق جريدة وبطارية، كتابين، وقلم وكشكول.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

كنت أريد أن أدفع نفسي أكثر إلى هناك، بعيدًا عن المنطقة التي أعرفها، وأكتشف ماذا يوجد على بُعد يومين أو ثلاثة أيام سيرًا على الأقدام. رحلت وأنا محمل، إلا أنني وأنا أغلق الباب خلفي بدا لي كأنني تحررت من ثقل ما. كالمعتاد، يمكن أن يكون الثقل هو الكوخ أو الناس الذين انتهكوا حرمته، ولكن الشيء المحتمل أكثر أن يكون أنا. من أي شيء آخر نهرب عندما نهرب من المنزل؟

•

وداعًا، يقول الفتى البري لذلك المُدجن، ثم يدير له ظهره ويتخذ من جديد المدق الصاعد.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

التخييم في العراء

وفي أسفل خلال المنحدرات التي ابتلعتها الانهيالات، يغوص حذاءا التسلق في الأرض الطرية: عجين رمادي، لزج كأنه أسمنت طازج، يجعل كل خطوة مؤلمة. صعدت على جذع شجرة منزوع وعبرته في اتزان لأتخطى تلك الفوضى من الصخور المتحركة، ونهيرات المياه الموحلة، والتكتلات الضخمة الملقاة حولها كأن انفجارًا تسبب فيها، موضوعة في اتزان حذر على كتلة ما، أو محشورة داخل شق أرضي، وفي تلك الأوضاع غير الطبيعية تمتنع الأشجار عن الازدهار. وفي أعلى يوجد حزام متسع قاتم اللون، يشير إلى الجزء الذي فيه انقسم الجبل. صخرة رطبة ومتعفنة، وجذور أشجار اللاركس تبرز من وسط الجدار ولا تتمكن من ربط الجزءين معًا. لا توجد أي آثار لحيوانات برية: لا صفارة الإنذار ولا الانسحاب المفاجئ مع مروري، كأنها قد هاجرت في مجموعات من تلك الكارثة. حتى العصافير صمتت، تاركةً في الهواء فقط صوت بقبقة تيَّار مائي تحت الأرض. شعرت بارتياح في النهاية عندما اجتزت الحطام الأخير، وعثرت من جديد على ملامح مدق ينحني تجاه الشمال،

Telegram:@mbooks90

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وتركت خلفي الانهيال وبدأت من جديد في الصعود.

كنت أفكر في قضاء الليلة على شاطئ بحيرة، وأتدفأ بالنيران وأراقب نجوم أغسطس، ولكن لم يكُن هناك سبيل لذلك: كان هذا صيف الأمطار، وعندما وصلت شعرت باقتراب العاصفة. لا بد أن الساعة قاربت السابعة مساءً. بدأت جبهة من السحب المنتفخة والقاتمة ترعد على بعد بضعة كيلومترات من الوادي، على البلدة التي تركتها قبل بضع ساعات. يجتهد صيادان في تركيب خيمة كندية في وسط الرياح. كانت تصل في دفعات غاضبة، مجعدة سطح البحيرة ودافعة بالسحب نحونا، وهكذا توجهت نحو مجموعة من الحطام على أمل أن أجد ما أحتمي أسفله. كان هناك كوخ أكثر تماسكًا من الأكواخ الأخرى: جدرانه قائمة على الرغم من عدم اتزانها، وعلى السقف يوجد صفيح معدني. إذا كان أحدهم ما زال يستخدمها سيكون قد وضع قفلًا في مكان ما، أو ستكون مغلقة بمفتاحٍ، ولكنني لم أجد أي قفل. كان الباب معوجًا تمامًا ومحشورًا بالقوة. حاولت أن أدفعه بيدي وشعرت أنه يكاد يُفتح، ثم بضربة قوية من كتفي فتحته.

احتاجت عيناي إلى بعض الوقت لتعتادا الظلام. في الخارج

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بدأت الأمطار تطرق الصفيح. وفي الداخل لم تكُن هناك نوافذ، مجرد ثقوب بين الجدران، ويسمح السقف بمرور بعض الضوء. الموقد يوجد في منتصف الغرفة: أربعة حجارة مسطحة تحدد المجمرة، وفي زاوية مسمار الوحدة الذي يدور لتعليق المرجل، ثم رف من الخشب موضوع عليه مصباح زيتي، بعض الزجاجات الفارغة، وبواقي شمعة، ومسدس لعبة. ماذا يفعل مسدس لعبة هنا؟ كان تقليدًا لطبنجة، مكسرًا ومركبًا مرة أخرى بواسطة شريط لاصق. وأنا أنظر إليه تذكرت الرعاة الأطفال الذين كنت أراهم وأنا صغير في الجبل، متسخين وخجولين، ويتصرفون كالكبار وهم يعتنون بأبقارهم، وكيف كنت أحاول أن أتخيل الحياة التي يعيشونها في حين لا يراهم أحد. وجدت أيضًا قطعة من مرآة، وصحنًا مكسورًا، فنجانين معدنيين، وفرشة قذرة وممزقة. فكرت: لا بد أن الفئران مزقتها بهذه الطريقة، لأن الأرضية كانت مغطاة بخرق من الصوف الممزق، بقايا زجاجات مكسورة، وقش، ومن يدري ماذا أيضًا. لحسن الحظ، لم يكُن هناك ضوء يكفي لاكتشاف كل هذا. الآن أصبح صخب العاصفة يصم الآذان، نظفت بقدر استطاعتي جزءًا من الأرضية لأفرد عليه حقيبة النوم، ثم جلست عليها وفتحت حقيبتي. قطعة خبز سوداء، وعلبة

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

من اللحم، ثمرتا طماطم وبعض النبيذ كانت هي قائمة طعام تلك الأمسية. وأسفل كل تلك المياه، أصبح العشاء أيضًا هو التسلية الوحيدة، وهكذا حاولت أن أطيله على قدر استطاعتي، فأخذت أمضغ الخبز ببطء، وأشرب النبيذ في رشفات صغيرة. إلا أن العاصفة هدأت بعد ذلك. عثرت على بعض الخشب الجاف في إحدى زوايا الغرفة وأشعلت نارًا في الخارج، على بعد بضعة أمتار من الكوخ، لأنني خشيت أن أختنق إذا استخدمت الموقد. عندما عادت لتمطر من جديد كانت النيران قد تحولت بالفعل إلى شعلة جميلة حية. جلست على العتبة لأمكث بعيدًا عن المياه، وليكون لدي بعض الضوء لأقرأ، وهكذا قضيت الأمسية في صحبة كتاب لبريمو ليفي(17)، الجدول الدوري(18)، وهي سيرته الذاتية على شكل حكايات. فوقي كان يلوح ظل الجبل الذي عليّ أن أجتازه في الغد: من حين إلى آخر كنت أرفع عيني لأفحصه، حتى حل الظلام الشديد الذي لم يسمح لي بأن أفعل أي شيء.

عندئذ دخلت وأشعلت بواقي تلك الشمعة، وأخذت أقرأ وأنا بداخل حقيبة النوم. في «الحديد»، رابع قصة في الكتاب، يتذكر ليفي صداقته مع ساندرو ديلماسترو، الذي تعرف إليه

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

عام ١٩٣٨ في كلية الكيمياء في تورينو. كان لقاء بين اثنين من المهمشين: بريمو أصبح واحداً للتو بسبب القوانين العنصرية (ابن البرجوازية التورينية المضطرب والخائف من الفارق الذي لاحظه في نظرات زملائه إليه فجأة)، وساندرو مهمش منذ الأزل بسبب حذاءيه وملابسه ويديه ولغته، والطريقة التي يحملها معه إلى أسفل من جبل إيفريا، حيث أرسلوه ليدرس في المدينة. صبي عبري وآخر جبلي، تعرفا وبدآ يساعدان أحدهما الآخر. يساعد بريمو ساندرو في فهم الكيمياء المكتوبة في الكتب، مقتنعاً أنه فيها يكمن المفتاح للولوج إلى غموض المادة، في حين يصحب ساندرو بريمو ليلمس المادة بيديه، وليتعرف إلى غموضها من خلال الصخور، ومجاري المياه، الرياح والثلج. في الجبل، في تلك الأعوام، الأكثر قتامة، التي سبقت «ظلام أوروبا»، كانا قد عقدا صداقتهما وتمتعا باللحظات الأخيرة من الحرية. «كان يسحبني في عمليات تسلق منهكة في الثلج الطازج، بعيداً عن أي أثر إنساني، وكنا نتبع طرقاً يبدو أنه يستنتجها كإنسان بري. في الصيف، يسحبني من ملجأ إلى ملجأ، لنسكر من الشمس، والتعب والرياح، ونصقل جلد أطراف أصابعنا لملامسة صخور لم تلمسها يد إنسان من قبل: ولكن لم يكن هذا فوق القمم المشهورة ولا بحثاً عن إنجازات تبقى في الذاكرة،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لم يكُن يهمه من هذا شيء، كان يهمه التعرف على حدوده، قياس نفسه وتطويرها، في العمق الدفين كان يشعر بحاجته إلى أن يعد نفسه (وأن يعدني) لمستقبل حديدي، يقترب من شهر إلى شهر.

كانت رؤية ساندرو في الجبل مصالحة مع العالَم، ودافعًا لنسيان الكابوس الذي يقبع فوق أوروبا. كان مكانه، ذلك الذي خلق لأجله، مثل المارموط الذي يقلد صفيره وحفيفه، في الجبل يصبح سعيدًا، نوع من السعادة الصامتة والمعدية، كأنه نور يضيء. يبعث بداخلي ارتباطًا جديدًا مع الأرض ومع السماء، بهما يتضافر احتياجي إلى الحرية والامتلاء بالقوة، وجوعي لأن أفهم الأشياء التي دفعتني نحو الكيمياء».

في أثناء الليل توقفت الأمطار وعادت أكثر من مرة. أنا أيضًا كنت أنام وأستيقظ باستمرار. لفترات وجيزة، في ذلك التداخل المضطرب لحالات الوعي، حلمت بحضور يتحرك حولي في الكوخ. ربما كان شبح راعٍ وحيد، أو صبيين سبقاني إلى هنا منذ أكثر من سبعين عامًا. يمكن لبريمو وساندرو أن يكونا قد عبرا من هنا بالتحديد، في إحدى رحلاتهما الاستكشافية، كنت أجول في الجبال نفسها التي لمساها. في أحد الأيام

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

اختارا الطريق الخاطئ، وضلا الطريق، اقترح بريمو أن يعودا أدراجهما ولكن ساندرو لم يتزعزع عن موقفه، أراد الاستمرار، وعلق بغموض: أسوأ ما يمكن أن يحدث لنا هو أن نتذوق لحم الدب. هبط الليل واستسلم الصديقان لأن عليهما قضاءه في العراء، ممسكًا أحدهما بالآخر، وأسنانهما تصطك، يحدقان إلى القمر والسماء «ذات السحب المتفرقة». ومع الأنوار الأولى نزلا نحو الملجأ الجبلي يترنحان بفعل البرد والنعاس.

أنا أيضًا استيقظت بمجرد أن بدأت السماء في الشحوب. ربما كانت الساعة الخامسة صباحًا. لم أستطع أن أمكث هناك أكثر من ذلك لأتقلب على الأرض، متجنبًا قطع الزجاج، والمياه التي تتساقط من السقف وأفكر في كيف يمكن للزمن أن يقيدنا ويماطلنا، حيث يمكن لعام كامل أن يتطاير بسرعة البرق في حين يمكن لليلة واحدة ألا تنتهي على الإطلاق. جمعت حقيبة النوم، وأعدت ترتيب الحقيبة، ربطت حذائي وتركت الجريدة التي أشعلت بها النيران، وأنا أفكر أنه ربما يحتاج إليها أحدهم إن عاجلًا أم آجلًا. وفي النهاية حييت الكوخ الذي منحني الحماية، وأغلقت الباب خلفي وأنا أتنفس ملء رئتيّ.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

في الخارج كان الهواء رطبًا وباردًا. أشعر بجسمي متكسرًا، وبتعب أكثر من الليلة السابقة، ولكنني أعلم أن ذلك الشعور سيتلاشى بالمشي. حاولت ألا أفكر في كلمة «قهوة». توقفت على شاطئ نهر لأغسل أسناني ووجهي وعنقي، حتى استيقظت تمامًا. يبرز الصباح ساطعًا، في حين البحيرة في أسفل على بعد مائتي متر في الظلال، وقمة الجبل على بعد ألف متر في أعلى، تنيرها الشمس بالفعل. بقع الثلج الرمادية تشحب على الصخرة السوداء، ولكن فيما وراء تلك يوجد لون أبيض جديد، ساطع وشبه فضي، يشق الجدران، ويشق حدودًا وثنيات مثل علامة الطباشير. فكرت في أنه في أعلى نزل الثلج، ولكنني لم أر قط الثلج يرسم خطوطًا بهذه الدقة. سأكتشف فيما بعد أن الأمر يتعلق بالجليد، المطر الثلجي الذي تراكم في الليل في الحفر والشقوق، وفي ضوء الشمس يخط عروقًا لامعة. تنتظرني على الأقل ساعتان من تراكمات الصخور غير المتصلة قبل أن أصعد إلى فوق، لأطحن بين أصابعي مندهشًا الثلج. وهكذا أحنيت رأسي مثل البغل، ووضعت إبهامي في حمالتي حقيبة الظهر، وطلبت من قدمي المخلصتين أن تبدآ العمل.

Telegram:@mbooks90

«أجبنا على عامل اللوكاندة، الذي كان يسألنا ضاحكًا كيف

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

قضينا الوقت، وهو يدقق النظر في وجهينا الشاحبين، رافعين جبهتينا بأننا قضينا نزهة ممتازة، دفعنا الحساب، ثم ذهبنا بكرامتنا. كان هذا هو لحم الدب، والآن وقد مرت سنوات عديدة، أندم أنني أكلت منه القليل، نظرًا إلى أن على الرغم من كل ما منحتني إياه الحياة من خير، لم يكُن لأي شيء، ولا حتى من بعيد، المذاق نفسه الذي كان لهذا اللحم، وهو مذاق أن نكون أقوياء وأحرارًا، أحرارًا أيضًا أن نخطئ، وسادة مصايرنا». .

(17) Primo Levi ولد في ٣١ يوليو ١٩١٩م بتورينو وتوفي في ١١ أبريل ١٩٨٧م بتورينو بالإيطالية هو كيميائي وكاتب إيطالي يهودي، وأحد الناجين من الهولوكوست. ألّف ليفي عدة كتب وروايات ومجموعات قصصية ومقالات وقصائد، اشتهر منها على نحو خاص: «هل هذا هو الإنسان» عن عام اعتقاله في معسكر أوشفيتز بيركينو النازي في بولندا، و«الجدول الدوري»..

(18) Il sistema periodico الجدول الدوري. هو مجموعة قصصية يقتدي فيها المؤلف بخواص بعض العناصر الكيميائية لعكس تجربته ككيميائي يهودي يعيش في ظل نظامٍ فاشي.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الملجأ

مهما استيقظت مبكرًا في الملجأ، كنت أجد أحدهم قد استيقظ قبلي. تطل نافذتي على الشرق، على سلسلة من الجبال السوداء يصل إليها الفجر في السادسة صباحًا، منيرًا الجدار المواجه لفراشي، وصابغًا الحجرة بالبرتقالي والذهبي. أفتح عيني على ذلك الضوء المفاجئ، فيتحول سرير النوم إلى تشابك من الأحلام المتوترة. رائحة النيران هي ما تذكرني بمكاني. خشب الزان، رائحته تختلف عن اللاركس الذي أستخدمه في منزلي. يستمر الموقد في حرقه طوال اليوم، إلا أنه يتمكن بالكاد من تدفئة المطبخ. في شهر أغسطس الممطر هذا نجتمع دائمًا هناك: على الموقد نصنع القهوة، ونطهو وننشر الغسيل ليجف، نحمص الفستق الذي عثرنا عليه في يوم ما، رطبًا ولا نعرف شيئًا عن عمره، في عمق خزانة المؤن.

كان ملجأ عتيقًا، مبنيًّا في القرن التاسع عشر ليمنح حماية للمهاجرين الذين يعودون إلى منازلهم في الشتاء. يقع على ارتفاع ٢٥٠٠ متر، على خطوة من الحدود بين واديين- أحدهما

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

يتساقط نحو الغرب، من حيث أتيت، والآخر يمتد بعذوبة تجاه الشرق، وتجاه القمم والبلدان المجهولة التي أراها من غرفتي - طوال مدق قديم للبضائع والإنسان لا يستخدمه أحد الآن. وبزوال حضارة البغل، أصبحت الهضبة بعيدة عن كل الطرق، تحيط بها الجبال الأقل نبلًا بالنسبة إلى متسلقي الألب والعسيرة جدًّا على المشاة البسطاء. إلا أنها تناسبني أنا تمامًا، لأن ذلك العالَم يمثل ما يمكنني أن أتمناه من البدائية: فهو مصنوع من الصخور المهشمة والقمم الوعرة، الثلوج، ولا أحد حوله.

توقفت ليلة واحدة للنوم، ثم في الصباح كانت لدي فكرة من أفكاري، فبكل ما أملك من جرأة، سألت أحد الحارسين إذا كان يمكنني أن أمكث بعض الوقت في مقابل أن أعمل، نظرًا إلى أنني تعبت من التجوال، والمكان يعجبني ولكن لا أملك ما يكفي من النقود لأمكث أيامًا كثيرة. نظرا إليّ بتعجب. كنت الضيف الوحيد لتلك الليلة، ولم يكُن يبدو على الملجأ، في الواقع، أنه في مرحلة ازدهار. تشاورا معًا، ربما فهما شيئًا من ذلك الذي لم أقله. يبلغ كلاهما الثلاثين أو أقل بقليل. في النهاية أجاباني بأنه لا وجود للعمل، إلا أنني يمكنني أن أمكث معهما، على الرغم من ذلك، المدة التي أريدها، دون أن أدفع،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

إذا يناسبني أن أشارك معهما حياتهما تلك. ولم أكن أنا أسأل أكثر من ذلك.

وعلى الساحة المواجهة للملجأ يرفرف علم إيطاليا. على الرغم من أنه يُستبدل كل عام في بداية شهر يونيو، فإنه بعد فترة وجيزة خلال الصيف تمزقه الرياح، وهكذا أصبحت مدة استمرارية هذا العلم هي ساعتي الرملية لتحديد فترة إقامتي هناك فوق. عندما وصلت انتهى اللون الأحمر تقريبًا، لم يظهر منه سوى أثر بسيط يتطاير نحو السماء. وعندما رحلت من هناك لم يكُن يبقى فيه سوى نصف الأبيض، قطعة من الوطن تمثل تمامًا روح الهضبة، وحياتنا على أحد الحدود.

أندريا هو الحارس الصباحي، الذي ارتبطت به أكثر. عندما أنزل يكون هو قد أشعل الموقد، ووضع الإفطار وغسل أطباق المساء السابق، ويجلس بالفعل يدخن، وهو يشاهد أفلامًا قديمة على المحمول، أو الصفحات الشخصيَّة لفتيات متجولًا على شبكة الإنترنت. يجلس دائمًا أمام الجزء نفسه من المائدة، بجوار النافذة الرطبة من التكثف. وفي نحو الساعة الحادية عشرة ينتقل من شرب القهوة إلى شرب النبيذ المخفف بالمياه، أو المياه والبرنو الأبيض pernod والكمباري، وهو يلف سجائر

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

جولدن فيرجينيا، ويعرض عليّ الشراب وهو يطلعني على صور السائحات الإنجليزيات اللاتي علمهن التزحلق على الجليد في الشتاء. يوجدن الآن على الشاطئ، وينشرن صورهن بملابس البحر. يبدون كعرائس البحر في البحار البعيدة جداً. وفوق رؤوسنا تمطر كل يوم، وأحياناً تتحول الأمطار إلى عصيدة تقريباً كالثلج، وعندما لا تمطر ولا تتساقط الثلوج تعصف الرياح الباردة إلى الحد الذي تدفعني بمجرد أن أضع أنفي خارج الباب. الفتاة الوحيدةَ من شحم وعظم كانت رياضية تمرن في مسار الجبل، نراقبها بالنظارة المعظمة في أثناء صعودها المدق، ونعلَق على قوامها، ونتمنى أن تأتي، ولو مرة، لتناول القهوة. إلا أنها بمجرد أن تصل إلى الهضبة، تلمس جدار الملجأ ثم تستدير وتنزل إلى أسفل، وتتبخر مثل كل ظهور للجمال. وكان قوامها في أثناء العودة أكثر سحراً، ولكن يتسبب في حزن أكثر من قوامها في أثناء الصعود.

ينام دافيدى إلى وقت متأخر وينزل الأخير إلى المطبخ، ولكن منذ تلك اللحظة يصبح في حركة مستمرة. كل يومين يعجن الخبز ثم يخبزه في فرن الموقد. كان يهتم بالحسابات، ويجيب على الهاتف، ويستقبل النزلاء، نظراً إلى أن أندريا يفضل المكوث

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

في المطبخ، والتحدث أقل قدر ممكن. لدافيدى أفكار أكثر بكثير مِمَّا يمكنه أن ينفذها. استثمارات وحفلات، مشروعات ليحسن أداء الملجأ الجبلي. إذا وجد نفسه بلا عمل، يمسك بأزميل من حافة النافذة، ويبدأ في حفر نقوش على مقبض سكين. كان يقول إنه لا يستطيع نقش أشكال متجانسة. كان مقتنعًا أنه يوجد شيء ما، بداخله، يتنافر مع التجانس، ربما بسبب عظم فكه الذي تحطم منذ عدة أعوام وأثر في ملامحه. يتحدث بحزية وهو جالس هناك في الأيام الممطرة، كأن أحدهم ترك المذياع دائرًا.

استحوذ عليّ المطبخ. في أثناء تفتيشي لخزانة المؤن أنقذت بعض الأرز والخضراوات الجافة، بعض الدقيق وصلصة الطماطم، علب تونة وأنشوجة وزيتون. عثرت على أشولة من البصل والبطاطس يجب أن تكفي حتى شهر سبتمبر. الزبد والبيض والجبن نحصل عليها من مرعى جبلي قريب يقع في أسفل، وكان هذا كل ما لدي لأخترع به الوجبات اليومية.

بخلاف الفقر في التغذية والأزمة المزمنة في نقص الفتيات، كانت مشكلتنا الرئيسية تكمن في الطاقة الكهربائية. لم يوجد ما يكفي من الشمس ليغذي الألواح الشمسية، وتوربينات الرياح

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ما زالت حلمًا في ذهن ديفيدى ولا بد من الحفاظ على الديزل. وهكذا إذا وصل نزلاء شغّلنا المولد، فيما عدا ذلك كانت فترات ما بعد الظهيرة هي اعتياد بطيء على الظلام. أجلس على رأس الطعام وأنا أقرأ أشعار أنطونيا بوتزي(19) وكتابًا عثرت عليه في الملجأ، قصة الضابط السابق في قوات نابليون، الذي عاش هناك فوق لمدة أربعين عامًا صيفًا وشتاءً، وكان واجبه أن يخفي الآثار بعد كل هطول للثلوج، وأن يدق الجرس في أثناء الضباب، وأن يبقي الموقد مشتعلًا لمن يأتي. وبعد ذلك بقرن ونصف، لم تختلف حياتنا هنا كثيرًا. في نحو الساعة السادسة، فقط بالاقتراب من النافذة كنت أستطيع أن ألتقط على الصفحات بعضًا من ذلك الضوء الأبيض الذي يكاد يكفي في تمييز بعض الكلمات. وبعد ذلك كنا نشعل شمعة، وعندما تنتهي، يعني ذلك أنها ساعة الذهاب للنوم.

كنت مندهشًا من أن الشابين قد استقبلاني بهذا الشكل الطبيعي، ولكن بدا لي أنني أيضًا فهمت السبب، فنحن الثلاثة مدفوعون للمكوث هناك فوق بسبب الاحتياجات ذاتها، احتجنا إلى القليل لكي نتعارف. في فراشي كنت أضع غطاءين فوق حقيبة النوم. كنت أدخل فيها في الظلام الحالك. كنت

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أنام وأنا أرتدي ملابسي التي تحمل رائحة حساء البصل، واللحم المسلوق الذي تُرك فوق النار لساعات طويلة، الصوف الرطب ورائحة الحطب- وهي الرائحة التي احتفظت بها طويلًا كرائحة للمنزل.

كان من السهل أن نفقد إحصاء الأيام التي تمر. خارج النوافذ يسود لون أبيض متجانس، متساوٍ دائمًا حتى المساء. فقط في الفجر نرى .أحيانًا بحر السحب من فوق، كأن عالَمنا قد أصبح منفصلًا عن ذلك العالَم السفلي، أحدهما منير ولامع، والآخر ممطر ومظلم. ولكن بعد برهة تبدأ جميعها في الصعود مبتلعة الغابات والمراعي، والصخور، وتصل لأن تلمس المنحنى النهائي، ثم تغطينا نحن أيضًا. نُحبس في المطبخ نستمع إلى السلك المعدني للعلم وهو يصطدم بالعامود، وكان ذلك الصليل هو موسيقى الهضبة مع صفير المرموط، والأنات التي تصدرها الرياح، وفرقعة النيران في الموقد، والجيتار الذي يحتضنه من حين إلى آخر دافيدى أو أندريا، على الرغم من أن كليهما لا يعرفان العزف حقًّا.

في بعض الأيام يصل أحدهم. بضعة أشخاص في كل مرة، نراهم من فوق عن طريق النظارة المعظمة. يسميهم أندريا

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

«العابرين». يستقبلهم دافيدى على الباب، ويقدم إليهم طبقًا من البولينتا والسجق وكوبًا من النبيذ، ثم يعود ليجلس معنا في المطبخ. كنا نحتفظ بمسافاتنا، ليس لأن الزيارات لم تكُن تعجبنا، ولكن لأن أولئك الأشخاص ينتمون إلى العالَم السفلي ويحضرون لنا أخباره، أخبارًا لا نود معرفتها، كنا نشعر أننا على ما يرام من دونها. عندما يرحل «العابرون»، نراقبهم وهم يبتعدون، يصغرون في الحجم بالتدريج حتى يختفون خلف منحنى ما في المدق، ثم نشعر بالارتياح لأننا عدنا وحدنا من جديد.

(19) Antonia Pozzi: شاعرة إيطالية، وُلدت في ميلانو عام ١٩١٢، وماتت منتحرة عام ١٩٣٨.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

زجاجة جيدة

في صباح أحد الأيام فُتحت فرجة بين السحب. من بين الأشياء التي عثرت عليها في الملجأ قصبة لصيد السمك، وهكذا سألت دافيدى وأندريا، أين يمكنني استخدامها.

«في البحيرة.التي لا وجود لها»، قالا لي.

لماذا تسمى هكذا؟

لأنك في أحيان يمكنك العثور عليها وأخرى لا.

وهل بها أسماك سلمون مرقط؟

إذا عثرت على البحيرة، ربما عثرت أيضًا على السلمون.

وأشارا لي الطريق الذي يمر عند خط انفصال المياه، ثم تعبر نحو الغرب، في وسط ركام المنحدر، محتفظًا دائمًا بالارتفاع نفسه. سواء كان للبحيرة وجود أم لا، بعد أيام داخل الملجأ

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

كنت أرغب بشدة في أن أحرك قدمي، وهكذا وضعت قصبة الصيد في حقيبة الظهر ورحلت. ابتعدت كثيرًا عن العلم، ووصلت إلى الصخرة التي عليها حفر دافيدى وأندريا الحروف الأولى من اسميهما، مع الحروف الأولى لاسم صديق لم يعد موجودًا، أسفل صليب صغير. وعلى المرتفعات لمحت بعض الشامواه وانحرفت عن المدق لأتبعها، حتى رأيتها تختفي بين الآثار المثلجة لانهيار جليدي. لم أكن قد خطوت على ثلج منذ أسابيع، وقررت أن ألقي بنفسي أنا أيضًا. تزحلقت، وسقطت، وقمت من جديد، ضحكت بمفردي، وتركت غريزتي تقودني. كنت أتذكر هذا منذ طفولتي، ذلك التحول في الجبل كان يثيرني، هذا الفرح بأن لدي جسدًا، والشعور بالتناغم لأنه وجد نفسه يتحرك في بيئته، تلك الحرية في الجري والقفز والتسلق، كأن يديَّ وقدميَّ تنطلق بمفردها، وأنه لا يمكن لشيء أن يؤذيها. كان جسدًا بلا عمر، ولم يعد نفسه ذلك الذي شعرت منذ بضعة شتاءات بأنه بدأ يشيخ.

كانت البحيرة الغامضة موجودة بالفعل، وفهمت لماذا أطلقوا عليها هذا: فهي مدفونة بين كتل مصقولة الجليد، ومياه سوداء على ارتفاع ٢.٧٠٠ متر، يمكن أيضًا أن تمر بجوارها دون أن

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تدرك وجودها. اصطدت بعض صراصير الحقل من الأعشاب القليلة الموجودة حولها ووضعتها في برطمان لأستخدمها كطعم. بالنسبة إلى الصيد، كنت قد اصطدت مرات قليلة في حياتي، ولكن ربما لم ترَ أسماك السلمون في هذه البحيرة سوى القليل من الصيادين: اصطدت منها ثلاثة صغيرة، أطول بقليل من الكف، عندما ألقيت بصنارتي قرب الشاطئ. وفي المرة الرابعة ألقيت بها بعيدًا، ولمحت بسرعة ظلًّا كبيرًا يمر، وشعرت بالشد، فجذبت أنا أيضًا، وفي لحظة لاحقة كانت البحيرة قد أخذت مني كل شيء. ها هي السمكة التي لا وجود لها، فكرت. وكمبتدئ لم أحضر أي أدوات احتياطية، في الوقت نفسه بدأت السماء تُغطى مرة أخرى بالسحب، وقررت العودة.

ومن جديد على القمة ظهرت لي رؤيا: كنت في وسط السحب وفجأة ظهرت لمحة من الشمس خلفي، وعكست الشمس على السحب قوس قزح دائريًّا، وفي وسط تلك الدائرة كانت هناك ظلال رجل، واستغرقني بعض الوقت لأفهم أنني أنا. كنت طويلًا ونحيفًا، برجلين وذراعين طويلة، أتحرك لأصافح ذاتي الأخرى، غريب يحيط به الضوء. استمر المشهد فترة وجيزة، لأن الشمس أظلمت على الفور وأصبح الهواء مكهربًا. قلت

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لنفسي: «والآن سأغتسل». داخل الحقيبة كانت توجد العبوة التي وضعت فيها غنيمتي في الصيد، وفي طريق عودتي جريًا أخذت أعدد بيني وبين نفسي كل الوصفات التي يمكنني تخيلها: فطيرة السلمون، سلمون مقلي في السمن، فيليه السلمون بالخل والنبيذ، سلمون في السلطانية مع زبد المراعي والزعتر البري. كنت أرغب في أن أعد غداء شهيًّا لصديقيّ. عندما ظهر علمنا المغموس في الضباب، بدأت تتساقط بالفعل القطرات الأولى: وأمام الملجأ فتحت برطمان الطعم، وقبل أن أدخل حررت الصراصير الباقية.

مع أندريا أتقاسم الفترات الصباحية وأكثر من ذلك بقليل. نتشابه أكثر مِمَّا نحب معرفته، حتى لا نضطرب بسبب هذا، مثلما تمر أمام فاترينة تعكس صورتك ثم تُدرك بعد ذلك بوهلة أن ذلك الشخص كان أنت. لم يكُن التشابه بيننا جسمانيًّا، ولكن في الطباع، أي في الطريقة التي نشعر بها بنفسينا ونمكث فيها مع الآخرين، ميل معين نحو المثالية وقدرة ضعيفة جدًّا لا تحتمل استمرارية العلاقات، التي تقود كل منا تجاه انطلاقات كبيرة وانسحابات أكبر. الصمت والوحدة كانا مخبأين مؤقتين. حتى النبيذ كان يساعد، ما دام لم يصبح بعد المشكلة. كنت

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أعرف تلك الأشياء عن نفسي بالفعل، كانت هذه هي المرة الأولى التي كنت أراها هكذا بوضوح لدى آخر. ما كان يحدث هناك، ففوق، داخلِ هذا الملجأ الجبلي القديم، الواقع على الحدود بين واديين، مُنح هذا اللقاء شكل الميعاد. لم يكن في الإمكان لهذا الوضع الاستمرار طويلًا لأنه لا أحد يمكنه تحمل صحبة شخص يشبهه تمامًا طويلًا، بل لن نتمكن كلانا من تحمل هذا.

كان هو ابن المهنة، أي ابن حارس ملجأ جبلي، وحفيد رجل جبل كان وهو طفل يقضي معه إجازاته الصيفية في المرعى الجبلي. عندما كبر اعتاد الفصول: في الشتاء كان يعمل معلم تزحلق في بلدة فرنسية صغيرة، كانت فيها أندية الديسكو والحانات أسفل ساحة التزلج، وهكذا كان يربح ما يكفيه ليعيش ما تبقى من السنة. لم يكُن الملجأ بالنسبة إليه مكان عمل ولكنه كان وسيلته ليمكث بعيدًا عن البلدة، التي بدأ هو يشعر بخطورتها، وكان يفضل الاختباء في الجبل، حيث، على الأقل لفترة، يعرف أنه في أمان. لم يكُن في حاجة إلى أن يخبرني بمخاطر الوادي العميق، ولكنه كان يفضل قضاء ثلاثة أشهر في حراسة ملجأ جبلي لا يمر عليه أحد.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

في أمان، ولكن تعيش. عندما أصبحنا صديقين بما يكفي ليسر كل منا بما في نفسه للآخر، قال لي إنه لم يعد يحتمل البقاء في الجبل. ولكن كيف؟ قلت أنا، مقتنعًا بأنه على الارتفاع المُختار تأسس ارتباطنا. كنت أخلط بين جذور المرء ودعوته، أو ربما أندريا، الذي وُلد في الجبل، كان يشعر بمثل احتياجي الملَّح إلى أن يختار لنفسه مكانه الخاص في العالَم: كان يريد أن يذهب إلى حيث الدفء، إلى اليونان أو صقلية. حكى لي عن الرحلات التي كان يقوم بها في الخريف، بين نهاية فصل الملجأ وبداية فصل التزلج، في بعض شواطئ الجنوب حيث الشمس، والنبيذ الأبيض، السمك والليمون. كانت في وسط تلك المشروعات الخاصَّة بالجزيرة السعيدة فتاة أيضًا. كان أندريا لديه كل النوايا لأن يحصل على النقود الكافية، من المتزلجين الأمريكيّين الأغنياء، الذين سيعينونه في الشتاء ليبتاع معها منزلًا صغيرًا يطل على البحر، وأن يودع الملجأ والثلج وكل شيء آخر. وكان شيء ما يخبرني بأنه سينجح في هذا.

كانت هناك قمة، بالقرب منا، كانت تنتمي إليه بشكل كبير إلى حدّ أنها كانت تحمل اسم عائلته، وكانت الوحيدة التي صعدناها معًا. حدث هذا قبل رحيلي بفترة وجيزة. في المساء

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أتى أصدقاء آخرون من البلدة، توقفوا للمبيت، وفي الصباح علق دافيدى ورقة مكتوب عليها «ذهبنا إلى الجبل»، ثم أغلقنا باب الملجأ واتخذنا المدق المعتاد. هناك من يحب السير في مجموعة، ومن، تقريبًا، دون أن يرغب في ذلك يجد نفسه بمفرده على الفور: بالنسبة إليّ كانت القمم الوعرة تجذبني وكنت قد سرت بالفعل لأكتشفها، وذهبت من هناك. رأيت أيضًا أن أندريا انطلق، من أسفل، في طريقه الخاص، وهو يختفي بين الكتل الضخمة التي كان يتحرك عليها بخفة، وتركنا المدق للأصدقاء الذين ساروا في صف. بعدها بقليل، بدأت القمم الوعرة تتطلب تركيزي. عبرت انهيالًا مثلجًا منه كنت قد نزلت المرة الأولى، ومن هذا المكان استطعت أن أرى من أعلى البحيرة التي لا وجود لها، عندما أصررت على أن أمكث على الحافة بدلًا من أن أتبع آثار الشاموا المنطلقة، بسهولة، على الطريقين. وفي مكان ما اضطررت إلى استخدام يدي، في البداية فقط لأستند، ثم بعد ذلك لأرفع نفسي لأعلى، حتى وجدت نفسي أمتطي الصخرة، وجداران ملساءان أسفل قدمي، وأنا أتساءل إذا لم أكن أرتكب نوعًا من الحماقات. ثم اتضح أن الصعود أسهل، منطقة متسعة من الألواح المسطحة والمتزعزعة، كانت تقريبًا شيئًا كاللعبة اختيار على أي الأحجار أقفز. كان هناك

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

شق أخير بين أسفل القمة، وكان هناك حيث التقيت من جديد بأندريا: كان يصعد بمفرده بطول القناة ووصلنا في الوقت نفسه إلى حيث يتقاطع الطريقان. وهذا، بدلًا من أن يوترنا، جعلنا نبتسم، لأنه من بعيد، ودون أن ينظر أحدنا إلى الآخر، اتخذنا الخطوة نفسها: مصادفة نادرة لم يشعر أي منا بالحاجة إلى التحدث عنها.

إلا أنه كان قد فكر في أن يحضر معه زجاجة، وأنا لا. أخرجها من حقيبة ظهره، ونزع الغطاء على القمة التي لها اسمه نفسه، في حين لحق بنا الآخرون. اقتسمنا كثيرًا من الزجاجات، ولكن كانت الأخيرة أفضلها: وقّعنا على كتاب القمة بالتاريخ وباسمينا وكنت سعيدًا أنه، في ذلك الدفتر المختبئ على ارتفاع ثلاثة آلاف متر، كُتبا متجاورين. لم يكونا محفورين، ولكن هناك فوق سوف يحتفظ بهما الجبل لبضعة أعوام.

ضباب. وغوص الحصى

داخل القنوات. أصوات مياه

تتساقط لأسفل من ثلوج الليل.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تفرد غطاء من أجلي

على الفراش العشبي

بيديك الخشنتين

وتدثرني بهما على كتفي، بخفة،

حتى لا يأخذني

البرد.

أفكر في السر الكبير الذي يعيش

بداخلك، فيما وراء حركتك

البطيئة، وفي معنى

أخوتنا الإنسانية تلك

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بلا كلمات، بين الصخور الضخمة

للجبال.

وربما توجد نجوم أكثر

وأسرار وطرق لم نسبر أغوارها

بيننا، في الصمت،

الذي يغطي كل السماء الممتدة

فيما وراء الضباب.

أنطونيا بوتزي، ملجأ

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بكاء

كان يجب أن يحدث هذا منذ فترة وفي النهاية، من وسط كل الأماكن التعسة الممكنة، انفجرت في البكاء في منطقة حجرية من تلك التي أحبها جدًّا. منذ نحو ساعة أسير ببطء أكثر: كنت أصعد على بعد بضع خطوات، ثم أتوقف، أنحني أرضًا لأتنفس، وأنظر إلى أعلى تجاه خط القمم، ويبدو لي أنني لم أتقدم ولا حتى مترًا واحدًا. كم منها تسلقتها بهذه الطريقة؟ خمسة أو ستة جدران كبيرة صخرية لا بد من الصعود عليها وتخمين الطريق، على أمل وجود طريقة للنزول دون أن أقتل نفسي من الجانب الآخر. لم تسر الأمور دائمًا بشكل جيد. مرتان كنت قد وصلت إلى أعلى فقط لأجد نفسي في مواجهة جرف، وعندئذٍ كان عليّ العودة إلى الوراء ومحاولة العبور من نقطة أخرى. قبل ذلك ببضع ساعات بدأت أشعر بالتعب، الآن أنا بالتأكيد منهك للغاية، حمالتا حقيبة الظهر تنشران كتفي وشعور بالغثيان من التعب، والارتفاع والدوار الذي لم أشعر به منذ الطفولة. عندما وضعت يدي على الصخرة وحاولت التشبث بها، اكتشفت أنني قد فقدت كل خفتي. تزحلقت

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

على منحدر، ووجدت نفسي في أسفل أكثر، جالسًا ضد رغبتي على حجر كبير مسطح. شعرت بالألم بعد ذلك بقليل، ألم كالطعن بارتفاع ما فوق الفخذ، وساق نصفها متجلط، ولكن لم يكُن يبدو لي أنها مكسورة. تمددت على تلك الصخرة نفسها مستخدمًا حقيبة الظهر كدعامة لظهري، عندئذ شعرت بعقدة تصعد إلى حلقي، وعيني تغشيان. ابكِ إذًا، فكرت، لا أحد يراك. وأخذت أبكي بحرقة متمددًا فوق تلك الصخرة، لأنني كنت متعبًا، أفتقد الجميع ولا أعرف أين أنا.

في ملء أغسطس، كان الشتاء ينحدر بالفعل نحو الخريف المبكر للجبل. كنت قد رحلت من الملجأ في الصباح الباكر، ولكن لم أكن سعيدًا على الإطلاق بأنني ذاهب، وهكذا في طريق العودة قررت أن أغير الطريق. سيكون الأمر أقل حزنًا، فكرت، إذا حولت الوداع إلى مغامرة. كانت هناك قرية على بعد نحو عشرة كيلومترات من هناك، وفي ذلك اليوم كانوا يحتفلون بشفيعها، وكان الرعاة يحتفلون مع من يذهب إلى هناك. للوصول إلى هناك، متبعًا الخريطة، كان عليّ أن أهبط ألف متر، ثم أعود لأصعد ألفًا أخرى في وادٍ متوازٍ، ولكنني كنت مقتنعًا بأنني يمكنني البقاء على الارتفاع نفسه،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

والعثور على طريقة لأدور حول الجبل. البحث عن طرق مختصرة هو الطريقة المثالية للوقوع في المآسي. هكذا كنت قد بدأت أعبر جرفًا ذا رواسب، يظهر فيه من حين إلى آخر فقط بعض العشب، وبعض بقاع العرعر أو الرودوندرون، والثلوج الأخيرة الجليدية في القنوات. كان الطقس هو اللغز المعتاد. مكثت طويلًا تحيط بي السحب، التي كانت تتباعد من حين إلى آخر وتتركني لأفحص الطريق. على يميني كانت توجد سلسلة من القمم، ومن كل واحدة منها كان يتدلى نتوء صخري: إلا أنني لم أكن أعرف كم كانت وأي الصعوبات تخبئ. لأفهم كيف أعبر كنت أتجسس على الشامواه. راقبت تحركاتها من أسفل، وكنت أتبع آثارها على النتوءات الجبلية، والآثار الوجيزة المتروكة: مسارات دائرية تقطع جوانب الجبل مثل حلقات الارتفاعات العالية، وكانت تنتهي فجأة حيث تتفرق الشامواه. وهكذا ملت إلى أسفل عن طريق منحدر وأنا أتساءل ماذا يمكن أن يكون هناك، آملًا أن أجد مسطحًا أو حوضًا، ولكن عندما وصلت إلى القمة الوعرة اكتشفت أنه ليس أمامي سوى نزول عفوي، كتل صخرية غير مترابطة، وعملية صعود أخرى مشابهة لتلك التي قمت بها للتو. كان ذلك عقابًا على خطية التعجرف. وبعد ذلك بساعات، وأنا أتمدد لأنشج على تلك

Telegram:@mbooks90

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الكتلة، لم أكن قد رأيت نهايتها بعد.

الآن أخذت أراقب الشمس، وأنا أحسد السحب التي تجري من وادٍ إلى آخر بلا جهد. كنت أشعر بأنني غبي ومغرور، جررت نفسي حتى هنا في لعبة حمقاء: أن أفقد نفسي حتى أرى إذا كنت قادرًا على أن أعثر على الطريق من جديد، أن أهرب مبتعدًا عن الجميع لأكتشف إذا كان أحد سيفتقدني. كنت قد ذهبت إلى الجبل بفكرة أنه، في وقت ما، بعد أن أقاوم لفترة طويلة، سأتحول إلى شخص آخر، وأن هذا التحول سيكون بلا رجوع: إلا أن أنا العتيق يبرز خارجًا أقوى مِمَّا كان في كل مرة. كنت قد تعلمت أن أكسر الحطب، وأشعل نيرانًا أسفل العاصفة، وأن أحرث وأبذر بستانًا، أن أطهو بنباتات الجبل، وأحلب بقرة، وأشون التبن، ولكنني لم أتعلم أن أمكث بمفردي، وكان هذا هدفي الحقيقي من كل رحلة نسك. في هذا أشعر بأنني كما كنت في اليوم الأول. لقد أصبح جلد يدي أكثر سُمكًا، وأصبح جسدي أكثر قوة ومقاومة، ولكن هذا لم يجعل روحي أكثر سمكًا ولا قواها، فما زالت دائمًا هشة ومريضة. كانت الوحدة أكثر من كونها كوخًا في الغابة، تشبه بيت المرايا، حيثما نظرت كنت أجد انعكاسًا لصورتي،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

مشوهة، غريبة، ومكررة مرات لا نهائية. كان يمكنني التحرر من كل شيء- إلا منها. لهذا، وأنا ممدد على تلك الصخرة، أعلنت فشل مغامرتي.

وفي حين أنا هناك أنوح على حالي، رأيت نسرًا يحوم حول رأسي. كان يرسم دوائر تضيق شيئًا فشيئًا، كأنه يستهدف فريسة، وبطريقة غريزية انتابني الشك بأنني أنا الفريسة. كنت ممددًا بلا حركة، وعلى حدّ علم النسر ربما أكون قد مت. إذا كنت قد مت، فكرت، كان سيتجاوز بعد برهة أي تردد وينزل ليلتهم وليمته. كنت قد عثرت على مختلف الشامواه والوعول المنزوعة اللحم حتى العظام، وكانت هيا كلها العظمية تسبب لي الحزن، ولكن كانت تعزيني فكرة أنها كانت طعامًا لآخر. إذا كان يمكنني الاختيار، كنت سأفضل أن تكون هكذا نهايتي أيضا.

ثم نهضت. وعلى الفور غيّر النسر ارتفاعه، وابتعد. ضبطت حمالات حقيبة الظهر، وأغلقت حزام الوسط. لم تكُن الضربة التي أخذتها تؤلم بشدة، وكنت أعلم أنه ما يزال لدي بعض من الطاقة. عدت إلى النقطة التي سقطت منها لأصعد من جديد بإيقاعي السابق، خطوتين واستراحة، ثم خطوتين واستراحة،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

دون أن أنظر إلى أعلى الآن، معتنيًا فقط بالمكان الذي عليه أضع قدميّ. ولم أدرك أنني على قمة الوعرة إلا عندما وصلت فوقها بالفعل، ومن هناك رأيت أخيرًا القرية التي أبحث عنها. كانت توجد نحو عشرة أكواخ متجاورة، على بعد مائتي أو ثلاثمائة أمتار في أسفل، مع الماشية التي ترعى في المراعي المحيطة بها. كانت توجد آنية معدنية ضخمة موضوعة على النار في العراء، ورجل يراقبها. بجوار كنيسة صغيرة بيضاء تجمعت مجموعة صغيرة، ومن هناك يتصاعد صوت غناء يصحبه أحدهم بالطبل. أعتقد أنني لم أكن قط سعيدًا لهذه الدرجة في حياتي لرؤية قداس وسماع ترانيم الكنيسة. نزعت حقيبة الظهر، وتمددت من جديد، أغلقت عينيّ، ولكن هذه المرة لأستمتع بالموسيقى وبالشمس.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الخريف
فصل الكتابة

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

عودة

بعد الظهيرة كنت في الكوخ من جديد. كان يختبئ من بعيد بين الأشجار، وهكذا ظهر فجأة أمامي كما يحدث أحيانًا مع الأشخاص، عندما يستدير أحدهم فجأة ويقابل شخصًا ما كان صديقًا ولم يعد كذلك، ولا يعرف إذا كان يصافحه أو يمر بجواره خافضًا نظره. كنت أشعر بشيء مماثل تجاه ذلك المنزل. كانت جمجمة الوعل الذي عثرت عليه في يوينو، والذي كنت قد أطلقت عليه إله فونتانه Fontane، كان ما يزال يطل على مملكته من العتبة. اصفرت المراعي بعض الشيء، والصحن الذي أستخدمه للكلاب كان مقلوبًا في العشب. لا بد أنها افتقدتني بعض الشيء، فكرت، ولا بد أن البستان الصغير افتقدني كثيرًا، فقد غزته الأعشاب الضارة ووطأت عليه بعض العجول بحثًا عن العشب الأخضر. آثارها ما تزال مطبوعة على الأرض الطرية. أنا، بطريقة أكثر تهذبًا خلعت حذاءَي الضخمين عند درج المدخل، وركنت العصا بجوار الباب. في المنزل أفرغت الحقيبة في غسالة الملابس: فقد ارتديت عدة مرات الملابس نفسها لأسابيع، دون أي ضيق،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

في حين أتصعلك بين الجبال، ولكن الآن عندما وصلت إلى المنزل فاحت رائحتها البشعة. في وقت لاحق، وفي حين أفرد الغسيل في الخارج، قابلت الراعي جاري، أتى ليعتذر باسم عجله، فهو يشعر باستياء شديد إلى حدّ أنه أحضر لي صندوقًا من الخضراوات كتعويض، ولكنني شكرته وقلت له أن ينسى هذا الموضوع، حيث إن فكرة البستان فكرة سيئة من البداية، ولم تكُن تضايقني فكرة إعادته ليكون جزءًا من المرعى.

•

في ذلك المساء أمام النيران بدأت أفكر من جديد في تلك الشهور الأخيرة. كنت أتأمل في ألواح السقف، وأشكال الذئاب والدببة والبوم المرسومة من عروق الخشب، كانت تذكرني بربيعي الطويل، وكنت أشعر بها مألوفة كأنها أحد مشاهد الطفولة. كم من الساعات اقتسمناها، ذلك الكوخ وأنا؟ هربت منه لأنه بدأ يعرفني جيدًا جدًّا، وشهد إحباطاتي وأحزاني في وحدتي، الآن وقد عدت، منهزمًا ومصدومًا بعض الشيء من صعلكتي في شهر أغسطس، كأنني عائد من غزوة ليلية، أشعر بأنني هنا، في الكوخ، في منزلي، لا ينبغي أن أخجل. لقد استقبلني ودعاني لأرتاح بين جدرانه. أو ربما كان هذا مجرد الشعور ببداية الخريف.

-

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

في الصباح ذهبت لأجول في الغابة. عثرت على بعض العرعر والتوت الأزرق لأضعها في الغرابّا. في الغابة السفلية الآن تبرز أشجار لاركس ضخمة صفراء، وبعض نباتات عش الغراب في المسطحات، ونباتات عش الغراب الذبابي، كأن الجبل بعد مدة طويلة من الرقاد قد دخل أخيرًا في فصل الحصاد. عندئذ جلست مستندًا إلى شجرة لاركس وأخرجت من جيبي كشكولي. جلست هناك وأنفي إلى أسفل أراقب أوراق الأشجار، ولعب الشمس بين الأغصان، وأفكر من جديد في كتاب «المشجر البري» لريغوني سترن: كنت أسكن على ارتفاع أكبر منه، هناك فوق لم يكُن هناك أثر لأشجار زان أو دردار، بلوط وبتولا، كل تنوعات الغابة حول منزله. إن أنواع الأشجار الموجودة على بعد ألفي متر أربعة فقط، الأخيرة التي استطاعت البقاء على قيد الحياة في شتاءات الجبل المرتفع، ونحوها كنت أشعر بأنني مخلص كشعور الشخص نحو القديسين الحماة. وهكذا قررت أن أفتتح كشكولي بشكر ل»مشجرة» الصغيرة في فونتانه:

أشعر بالاحترام تجاه أشجار الراتينجة الحمراء، مثلما أشعر به لساكن بلدة مظلمة، فهي تعيش في المناطق الرطبة وفي الأودية المظللة، حيث لا يبني الإنسان ولا يزرع. تجعلها الرطوبة تنمو

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بسرعة: خشبها خفيف، إسفنجي، مناسب ليعزل المنازل من البرد. إنه احترام رسميّ، ذلك الذي أكنه لشجرة لن أفهمها مطلقًا إلى العمق. يسبب لي الاضطراب عدم مبالاتها بالفصول، لأنها نبات دائم الخضرة ولها وجه لا يغير ملامحه. أشعر بالريبة تجاه الأوراق ذات الشكل الرائع، التي تجعل من الصعب تمييز ما هو مثالي. المساحات الشاسعة من الراتينجات الحمراء تجعلني أفكر في غابات الشمال، في البحيرات والممرات البحرية والثلج. ولكن بمجرد أن جلست، في إحدى المرات في شهر أغسطس، أسفل واحدة، وحمتني في عشية أحد الأيام الممطرة، شكرت تكاثف أغصانها، والفراء الطري الدافئ، لتلك الشجرة التي كانت بالنسبة إليّ كجحر.

أشعر بالإعجاب تجاه أشجار الصنوبر البرية كشجرة طليعية. إنها الشجرة الأولى ذات الجذع الطويل التي احتلت المناطق الحجرية، وسكنت في القنوات المحطمة بالانهيالات. يصنع فقر الأرض منها شجرة ذات شكل غير متناسق وغريب، ولا تشبه واحدة منها الأخرى، جميعها منحية ومعوجة، كأنها عظام رجال الجبل المسنين. من المستحيل أن يأخذ منها أحد الخشب للبناء، وهو غير مناسب أيضًا للموقد، لأن دخان الراتينج الخارج

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

منها يغطي المواسير ويحرقها في النهاية. ولكن ذلك الراتينج نفسه هو ما يمنح للغابة رائحتها ويوقظها من سباتها. هذه الرائحة تُذكرني بالجنوب وبالبحر: ربما لأن أشجار صنوبر أخرى تعطر بقعة البحر المتوسط. وهكذا الصنوبر البري هو حلم الشمس في الغابة أسفل الثلج.

أحب شجرة اللاركس كأنها أخ لي، فهي تحمل رائحة المنزل ورائحة دخان مدخنتي. صف من اللاركس هو ما أراه عندما أرفع عيني من على الورقة وأنظر خارجًا. في أيام الرياح تمايل كأنها العيدان. تقضي أشجار اللاركس شهورًا طويلة من النعاس، قبل أن تضع جواهرها في أبريل، ثم يتغير لونها مع تقدم الصيف: ومن الأخضر الناصع ليونيو إلى ذلك الشاحب في أغسطس وصولًا إلى الأصفر والأحمر في شهر أكتوبر. أحب الشمس، والجهة الجنوبية من الجبال، الأراضي الجافة والرياح. فهي تدفع بنفسها إلى أعلى بحثًا عن الضوء، فوق من يقفون بجوارها من الرفاق: لهذا تجف أغصانها السفلية، كما يحدث للأشياء التي نتركها خلفنا في الحياة، ويكفي القليل عندئذ ليقطعها وليحررنا منها. ولكن تلك الهشاشة للأغصان تضمنً صلابة الجذع: فمن أشجار اللاركس تُصنع قوائم أسقف

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

المنازل، على تلك الموجودة في القمة، اعتاد رجال الجبل حفر تاريخ البناء: إن المنازل الأكثر بروزًا لهذا الوادي يعود تاريخ بنائها إلى القرن الثامن عشر. عندما أنظر إليها أفكر في أشجار اللاركس تلك، المسنة، التي يبلغ عمرها أربعة عقود، واحد قضته في الغابة والثلاثة الأخرى في دعم منزل، وتبدو لي هذه الخدمة الأكثر نبلًا التي يمكن لشجرة أن تقدمها إلى إنسان.

أبجل الصنوبر الثمري كإله. تأتي العصا التي تساعدني على المشي منها: لها خشب أبيض لا يصفر بمرور الزمن، قوي ومطاط على ممر المدقات. بخلاف ذلك تعيش في الغابات، ولكنها في هذه الجهات شجرة وحيدة تنمو ببطء شديد. لها بذور تخفيها العصافير في مخازنها السرية، وتدفنها في الصخور الموجودة على مرتفعات عالية. ثم يكفي بعض الطمي، وقليل من مياه الأمطار: إن الجذوع الأخيرة للصنوبر الثمري تنمو هناك فوق، على حافة الأجراف، وعلى المرتفعات.

تتخذ أحيانًا أشكالًا معذبة بسبب الحركات الأكروباتية التي يجب أن تفعلها لتنمو، بسبب الثلوج التي تلويها وتحنيها، وبسبب الصواعق التي تقسمها. عثرت على أشجع الأشجار على ارتفاع ألفي وخمسمائة متر، شجرة صنوبر مثمرة صغيرة نمت في حافة

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ناتئة تحميها من الرياح، وتجمع لها القليل من مياه السماء. بدا لي كأنني اكتشفت معبدًا سريًا، ولا بد أنني تلوت شيئًا أشبه بالصلاة.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

كلمات

كان ريمينجو يقرأ عن كل شيء، ولكن أكثر ما كان يقرؤه هي الكتب الصعبة. هذا العام قرأ سارتر وكامي، وساراماغو. كان من المدهش السير على أحد المدقات وسماعه ينطق بتلك الأسماء، ويعيد بناء قصتينا المتناقضتين كقارئين: أنا، خريج تعليم المدينة، انتهى بي الأمر لأن أرفض الكتّاب المثقفين وأن أقع في حب الرواية الأمريكيّة، تلك المرتبطة بالجبهة وبالشارع، أمّا هو، كان قد أنهى فقط تعليمه المتوسط، وتربى في قرية جبلية، وفي سن الأربعين يكتشف الكلاسيكيات. حكى لي عن طفولته المنعزلة، ابن وحيد وخجول وبلا أصدقاء. سرعان ما بدأ العمل كبنّاء مع أبيه. كان يفضل العمل على المدرسة، ولكنه كان له طابع متأمل وفي وقت ما أدرك قصورًا خطيرًا: لم تكُن الكلمات التي يعرفها كافية لتعبّر عما يشعر به.

توقفت. كنا نسير في الغابة في نهاية شهر أغسطس دون أن نقابل أحدًا. بأي معنى؟ سألته بفضول. شرح لي ريمينجو: بمعنى أنه كان يتحدث دائمًا باللهجة الدارجة، وبأن اللهجة الدارجة كان

Telegram:@mbooks90

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بها غناء في المفردات ودقة ليشير إلى الأماكن والمعدات، العمل وأجزاء المنزل، النباتات والحيوانات، ولكن تصبح فجأة فقيرة ومبهمة عندما يتعلق الأمر بالمشاعر. هل تعرف ماذا يُقال عندما تشعر بالحزن؟ سألني. يُقال: «يبدو لي طويلًا». أي الوقت. إنه الوقت الذي لا يمضي مطلقًا عندما تشعر بالحزن. ولكن التعبير يصلح أيضًا إذا كنت تعاني من الاشتياق لشيء ما، عندما تشعر بالوحدة، عندما لا تعود الحياة التي تعيشها تعجبك. عندئذٍ قرر ريمينجو أن تلك الكلمات الثلاث لا تكفي، وأنه يحتاج إلى كلمات جديدة ليعبر بها عما يشعر، وأخذ يبحث عنها في الكتب. لهذا أصبح قارئًا نهمًا. كان يبحث عن الكلمات التي تحدثه عن نفسه.

ومثلهم جميعًا هناك فوق، كانت له مهنة في الصيف والتزام في الشتاء. في الصيف كان يرمم المنازل القديمة، وفي الشتاء كان يناور كاسحة الثلج على ساحات التزحلق. لم تكُن فترات العمل ولا الراتب تعجبه بالمرة، ولكن كان يعجبه المنظر: في الليل، بمفرده، مع مساحة بيضاء شاسعة، والقمم الصخرية على بعد ثلاثة آلاف متر مضيئة بالكشافات، وبعض الموسيقى داخل كابينة الكاسحة والرياح في الخارج أو الضباب الكثيف، أو

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

السماء المغطاة بالنجوم.

في إحدى المرات كاد الموت يختطفه. كان عمره خمسة وعشرين عامًا، وكان يدق ساحة تزلج على ارتفاع منخفض، تلك التي تمر بالقرب من كوخي بالتحديد. وفي لحظة ما، كان قد رأى أشجار اللاركس تنحني حتى الأرض، وما كاد يشعر بالدهشة لقوة الرياح حتى داهمه هذا الاكتساح الهوائي. لم تكُن الرياح ولكن مقدمة انهيال جليدي. كان يكفي هواؤه ليحطم الزجاج الأمامي للكاسحة. استيقظ ريمينجو، لا يدري بعد كم من الوقت داخل حطام كاسحة الثلج التي حُشرت بين الأشجار. كان يشعر بالألم في كل جسده، ولكنه جر نفسه خارجًا ليزحف حتى الوادي. قال لي إن العدو الأسوأ، في أثناء النزول، لم يكُن شعوره بالألم ولكن التعب، تلك الرغبة في أن يتوقف ليرتاح. إلا أنه اكتشف جزءًا منه متعلقًا بشدة بالحياة، وهو ذلك الذي أعاده إلى المنزل. وعندما وصل إليه فقد الوعي بمجرد تخطيه عتبته.

ولكن لم يكُن هو يقول «منزل». على الرغم من أنه لديه هوس بالمنازل، ولكن عندما كان يجب عليه الإشارة إلى منزله كان يلجأ للدوران بالكلمات. كان يقول، لنذهب عندي. أو: حيث

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أسكن، ولكنني لم أسمعه قط يقول: إلى «منزلي». كنت أتساءل عن السبب، حيث كنت قد بدأت أنا أطلق كلمة «منزل» على أي مكان أسكن فيه ولو لفترة وجيزة. سواء كان السبب أنه لا يشعر بأنه في منزله في أي مكان، أو أن أي منزل يساوي الآخر لأن الوادي بكامله هو منزله. إلا أنني كنت أحسده على هذا: أنه ينتمي إلى مكان أفسح، فهو ينتمي إلى الغابات والشلالات، إلى شكل الجبال، وإلى جزء السماء التي تقطعه، إلى الفصول التي تعبر عليه هناك.

نظرًا إلى أنه لم يتحرك قط من بلدته، كان يحب الأشخاص الذين يذهبون ويجيؤون. يحدث هذا له منذ الطفولة. يفضل التحدث مع الغرباء، كأن حجرًا يسأل عصفورًا ماذا يوجد على الجانب الآخر من الجبل. ليرد هذا، عندما يعقد صداقة مع أحدهم، يأخذه ليزور مكانًا خاصًا، بحيرة كبيرة كئيبة تشبهه، وكنا متوجهان إلى هناك في ذلك اليوم. وعلى طول المدق يشير إلى أماكن ويسميها بأسمائها، ولكن لم تكن قرى، ولا قمم كما في الخرائط الرسمية: نخريطته مكونة من غابة، من خلاء، من ثقب في الأرض، من كتلة صخرية مزورعة في وسط المرعى. هل تعرف ما اسم هذا المكان؟ يقول، ثم يسرد أسماءها بلهجته:

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

البيانتوس ساردينيوس، البارا بيرا، الساك موريل،لا بورنا داي جراي (20).

لم تكُن أسماء تلك الأماكن موجودة في أي سجل. الآن لا يتذكرها سوى قليلين: وُضعت حدود وخُصصت ملكيات، ولكن بمجرد أن هُجر الجبل سقطت في النسيان. وهكذا ريميجو، الذي منذ صباه كان يستمتع بالكلمات الجديدة، أصبح يعاني من أجل الكلمات المفقودة، مثلما يتألم من أجل الحطام الذي نقابله في طريق صعودنا. تلك المنازل أيضًا مُنحت أسماء في زمنها: فونتانه، شابميتا، بيرينجازتي، بيللتزيرا (21)، لكل منزل اسم، يمكن أحيانًا فهم أصوله، وفي أحيان أخرى كان ذكرى لشيء ما، أو لشخص ما، لم يعد أحد يتذكره. ثم سقط سقفه، وتحطمت جدرانه، والاسم هو الجزء الأخير الذي يسقط، وستختفي واحدة تلو الأخرى ما دام لن يعرف أحدهم كيف كانت تُدعى تلك الحجارة، ذلك الخلاء، ذلك الثقب، وسيتحرر الجبل، ليس فقط من الإنسان، ولكن أيضًا من احتياج منح أسماء للأشياء. أحيانًا كان ريميجو يتذكر مصطلحًا ما، ولكنه لا يتذكر معناه -كان مجرد صوت سمعه في طفولته- عندئذ كان يسأل أمه التي كانت لديها اثنين وسبعينِ عامًا، وخمس بقرات

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وكلبين وتعيش خارج الزمن مع الكلمات المنسية.

كان يقودني بين الحطام كأنه خبير آثار. كان يرمم منازل منذ زمن وزار العديد جدًّا منها. في الصناديق كان قد عثر على وثائق يعود عمرها إلى ثلاثمائة أو أربعمائة عام، وصايا، نقل ملكية، مناقصات بناء. شرح لي أنه، في الأزمنة القديمة، عندما كانوا يعهدون إلى مقاول ببناء منزل، لم يكن لديهم تصميم مرسوم، ولكن كان يكفي أن يضعوا قائمة بعدد الغرف التي يرغبون فيها، كما من كتيب تخيلي: حظيرة، مخزن للتبن، مكان لطحن الشعير، وآخر لصناعة الجبن، والشرفات لتجفيف التبن. كان الحطام الذي زرناه أبسط من هذا. كان ريميجو يشير إليّ بالتفاصيل: الطريقة التي بُنيت بها المدفأة، أو تجويف في الجدار، أو قوس النوافذ. كان يمكن معرفة تاريخ البناء من تلك التفاصيل. كان يشرح لي التقنيات بدقة شديدة في حين أقف أنا أمام الباب، لأنه في الداخل كان ظلام وفي الخارج كان النور، وكنت أفضل المراعي والغابات أكثر بكثير من تلك الأكوام الحجرية الرطبة، وما تبعثه من رياح موت.

اكتشفنا أننا نحب أن نذهب للتمشية معًا. كنا نرحل بعد الظهر، عندما يعود قليل من المتنزهين الباقين إلى الوادي: نصعد بسرعة

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لمدة ساعة أو اثنتين، وفي وقت الغروب كان الجبل كله لنا. كنا نقف تحت أي تجمع صخري ونخترع في كل مرة مسارًا جديدًا. كان يوجد دائمًا شلال يجب علينا صعوده، أو أثر بطول مجرى مائي. هل نصعد من هنا؟ كنا نتساءل. ثم في أثناء صعودنا كنا نقابل حيوانات الشامواه التي كانت تنظر إلينا بدهشة، قبل أن تبتعد بقفزة أو اثنتين: وأنتما ماذا تفعلان هنا في هذه الساعة؟، تبدو كأنها تسأل. أليس لديكما «منزل»؟

.

كان ريميجو يصورها. ظل هذا معه من هوايات أبيه. كانت قطعان من خمسة عشر أو عشرين تقريبًا: كانت فرحة مسيراتنا تكتمل هناك، ليس في صلبان القمة أو بين موائد ملجأ ما، ولكن في وسط الصخور عند غروب الشمس، ونحن ننظر في أعين الشامواه. كنا نريد أن نقول لها ألا تهرب، فنحن نعبر فحسب، فالخوف الذي تشعر به تجاهنا يمثل حدًّا لا يمكن تجاوزه: كان يمكننا أن نسبح في بحيرة ما، أن نتقوت على توت العليق والتوت الأزرق، ونبات في المرعى، ولكن كانت الحيوانات البرية ستهرب عند مرورنا، وتذكرنا بأننا لسنا مثلها، ولن نصبح مثلها أبدًا.

كنت أشعر بأنني أفضل أسفل المساقط- أو أمام الشلالات،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بالقرب من المياه المتحركة، وكان ريميجو يفضل المياه الثابتة. وكانت بحيرته كئيبة بالفعل. من جهة انهال الجبل، وتراكمت الحجارة عند المياه وأصبحت كحواجز، ومن الشاطئ الآخر كان هناك منحدر تستوطنه أشجار الصفصاف والرودودندريات، يقطعه شلال يبدأ في أعلى بعض الشيء، ويُغذي البحيرة. كانت هناك بعض الأكواخ التي تقاوم، معلقة في منتصف الارتفاع، حيث تلطف بعض المراعي المنحدر. كان أحدها ملك ريميجو. بُني في مواجهة أحد الجدران الصخرية، ومِن ثَمَّ كانت تكفي ثلاثة جدران فقط، بدلًا من أربعة، وأصبح لديه ملجأ طبيعي يحميه من الانهيالات. أشار لي إليه من أسفل، وهو يصحبني خطوة خطوة بإصبعه بطول مدق تخيلي. وفي النهاية بدا لي أنني أرى شيئًا ما أمام جدار الصخرة، بلون الصخرة نفسها.

هل تراه؟ سألني.

أجل، أجبت كاذبًا.

لنذهب إلى فوق لنراه، ما رأيك؟

بالطبع، قلت، لنذهب لفوق.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

Il piandes sardognes, Il pra' pera', il sac murel, la (20)
.borna de' grai

Fontane, Champette, Brengatze, la Pelletzira (21)

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

زيارة للكوخ

في سبتمبر أتى شخص ليرى كيف أصبحت. لم نكن قد التقينا منذ فترة. مكثنا معًا يومين بدوا لي طويلين، بسبب التركيز الذي تطلباه مني. عندما رحل، أخذت كشكولي وكتبت:

رأيت يد وقدم أبي تبرزان من أسفل الملاءات هذا الصباح. كم كان غريبًا وجوده هنا، على أريكتي التي تصبح فراشًا، ضيفًا في منزلي. أبي رجل لم ينم قط طويلًا. إلا أنه في هذا الصباح كان على الأرض كوب فارغ وجريدة الكوريري للأمس، وقد تغيرت أماكن صفحات مثل ما يحدث للجرائد التي قُرئت من أولها إلى آخرها. لا بد أنه درسها طوال الليل، وهو يشرب الويسكي الأسكتلندي الذي أحضره لي، ولا بد أنه نام على الرغم من أن النور قد سطع بالفعل في الخارج. وبسبب النور الذي دخل من نافذة السقف كان قد جذب الملاءة ليضعها فوق عينيه، وكان هكذا عندما رأيته.

كم مرة رأيت والدي في فراش؟ لا بد أن الأخيرة كانت في إحدى فترات بعد الظهر في ميلانو. استدعاني أنا وأختي إلى

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

حجرته عندما أيقظته أصوات شجارنا، وفي الظلام استقر على من يكون المخطئ ونادى اسمه بصوت مرتفع، عندئذٍ شعر ذلك برعدة، وشعر الآخر بنجاته. لم يكُن ينام حتى بعد أن أعود متأخرًا في الليل، وكنت أجده في المطبخ، بالغرابا والصحيفة، وكنت أفضل لو كان ينطق بالكلمات ما يقوله بعينيه، وهكذا كان سيمكنني أن أجيبه: اسمع، إنها حياتي.

حتى الآن. والحياة حياتي، والأريكة التي ينام عليها أريكتي، والكوب الذي شرب منه كوبي، لم يكُن أبي سوى ضيف في منزلي، وكانت يده الآن في عمر الرابعة والسبعين مشابهة تمامًا لما كانت عليه في الأربعين. يد تألمت، قاتمة اللون، ذات عقد، ويرتدي فيها خاتم الزواج الذي لم يخلعه قط. كانت قدمه التي برزت من أسفل الملاءة تشبه يده، بخلاف ظفر إبهام القدم الأصفر والمتورم، وظفر العظم كُسر في أثناء تمشيته على المدقات. لم يعثر أبي قط على حذاء مناسب لقدمه اليمنى. من بين الأغنيات التي علمها لي، كانت أغنيتي المفضلة هي هذه: *سواء كانوا بأحذية أو دون، أريد أن يعود جنودي في الألب إلى هنا*(22). كان هو قد انضم إلى القوات الجبلية، ومنذ طفولتي كان يغني لي عن الحرب العظمى، وكانت قصص

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الأحذية، القطارات، الحبيبات والنبيذ، جزءًا منا.

عندئذ تخيلت أنني نزعت الملاءة ووجدته هكذا، الذقن والشعر بلون أسود متفحم، عينين يطل منهما الشر، وشعرت من جديد بقشعريرة، وتركت القهوة وخرجت. في الخارج غسلت وجهي من النافورة وأخذت الآنية التي أفرغها الكلاب، في الليل، من العظام. عندما عدت مرة أخرى إلى الداخل، لم أجد أبي.

بعد ذلك، عندما رحل هو، هناك فوق في الغابة عثرت على شجرة لاركس عارية بسبب صاعقة، وقد حدث لها شيء شديد الغرابة. كان هناك فرع واحد فقط في قاعها ما زال على قيد الحياة. أضرت الصاعقة بالجذع ولكن ليس بهذا الغصن، الذي من يدري كيف غير اتجاهه، وبدأ ينمو بشكل رأسي، وأصبح الآن تقريبًا كجذع جديد لها. والآن أصبحت تلك اللاركس العجوز شجرتين، واحدة محروقة وعارية، والأخرى تغطيها البراعم. عن الأشياء التي حدثت في هذه الأيام، في البداية فكرت في أن الجذع الجديد يمكن أن يكون أنا، في حين القديم هو أبي. ثم بعد ذلك فكرت في أنني كل من الجذعين، ذلك القديم وذلك الجديد، وأن الصاعقة هي بالتحديد الأشياء التي أنا في انتظارها، النار التي تحرق الإنسان العتيق بداخلك

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لينمو مكانه الجديد. في هذه الحالة لم يكُن أبي سوى شجرة أخرى في الغابة. وفجأة التفت لأواجهه.

(22) O con le scarper o senza scarpe, i miei alpini li voglio qua. رابط الأغنية https://www.youtube.com/watch?v=Ggk_V٨٦٧syE

وكانت أغنية عن قوات الجيش في الألب وقت الحرب.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

كلب محظوظ

«إذا وُلدت من جديد أقسم أنني سأولد كلبًا»، كان جابريله يقول، وهو يرى الجرو الذي اقتناه في ذلك الصيف تغطيه قبلات وتربيتات الفتيات اللاتي يعبرن. شخص آخر، وليس هو، أسماه «لا كي». كان قد وُلد في القرية من أم فصيلة كولي الأسكتلندية. وأب مجهول، وأحضره إلى المرعى الجبلي ليتعلم من «لوبو» عمل الراعي، ولكن ربما كان هذا الأب العاشق للمغامرات قد ترك له خصاله، فبالإضافة إلى ألوانه المعكوسة: الأبيض بالبقع السوداء، الجانبين النحيفين لمن وُلد ليجري، وجرس في عنقه يمكنك أن تسمعه وهو يجري خلف أي سائر. كان جابريله يهز رأسه وهو ينظر إليه مبتعدًا. إن الأبقار لا تهم ذلك الكلب، فهو يهتم بالبشر. أحيانًا كنت أنا ذلك السائر، وأحاول أن أقنعه: لا، هيا، لا تتبعني، امكث هنا مع صاحبك. كان «لا كي» يهز ذيله. إذا وبخته وحاولت أن أهرب منه يعد ذلك لعبًا ويجري خلفي لمسافة أطول، حتى بدأت أستسلم وأصطحبه معي، وأضع خصائصه ككلب ألبي قيد الاختبار. على حسب معلوماتي، ليس في طبيعة الكلاب خصيصة

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تسلق الجبال: كان هو يتسلق على المرتفعات ويتسلل بطول النتوء كأنه جرو شامواه، ولم يكُن فيه أي شيء يشبه كلاب الحراسة ذوي المظهر الواثق، السلطوي، الذين يحيطون بالغزاة في المراعي. ولكن من أين جئت أنت؟ كنت أسأله، في حين كان يقف بفخر على صخرة لينظر إلى الوادي، كأنه أحد الوعول. كنت أشعر بالسعادة وأنا أجده بجواري. في أسفل لدى جابريله كانت هناك سلسلة تتدلى من أحد الجدران، ورغمًا عني، عند عودتي كنت أربطه فيها حتى لا يتبعني إلى المنزل. عندئذٍ كان لا كي ينبح إلى السماء بكل حزنه -ولكن أتسمع ذلك الصوت القوي، يقول جابريله- في حين «لوبو» يشرع في إعادة الأبقار إلى الحظيرة، مخلص كأن لا شيء على الإطلاق في هذا العالَم يهمه أكثر من عمله. كانا كأخين قُدر لهما أن يكره أحدهما الآخر، الابن الوحيد والابن بالتبني، ذلك المستقر والآخر المتشرد. في أثناء نزولي إلى «فونتانه» كنت أسد أذنيّ حتى لا أسمع عويله.

أتى الخريف في إشارات صغيرة، ليس فقط من خلال الظلام الذي بدأ يحل كل مساء أبكر بقليل، ولكن أيضًا في الصقيع على عشب المنزل عندما كنت أخرج في الصباح بفنجان القهوة.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

في ظلال اللاركس التي كنت أراها تمدد حتى منتصف النهار، في الحيوانات البرية، التي بعد أن كانت مختبئة من الناس، عادت لتظهر من جديد: في أثناء الغروب تخرج الماعز لتأكل في المرعى، والثعالب تقترب بحثًا عن الطعام. ترتج الغابة بالحركة عند ذهابي للبحث عن الحطب- من وثوب سنجاب على جذع، لقفز أرنب بري في الأحراش، وظلال تحركاتها. كان ماريو ريغوني سترن يقول إنه من بين الفصول، ما يعجبه أقل هو الصيف، لأن الحياة تختبئ من الإنسان كأنها غائبة، في حين كان يحب الخريف الذي يدفعنا لتنقية نظرتنا من جديد، والانتباه والإصغاء. ولكن لم يكُن يتحدث عن النعاس الذي أشعر بأنه يُغلف الجبل، وعن الشلالات الجافة، والعشب المحروق بالجليد في الليل، والروائح العطرة التي تضعف بعض الشيء، فلا تشم رائحة التبن، ولا الراتينج، ولا الطحالب. في الهواء تبدأ روائح المداخن في الانتشار، وروائح السماد التي يفردها الرعاة قبل أن يرحلوا. وبعد ليالي المطر رأيت الثلج ينشر اللون الأبيض على الجبال -وينزل من ارتفاع ٢٥٠٠ إلى ٢٤٠٠ ثم إلى ٢٣٠٠ متر- ثم يسيح في ظهيرة يوم مشمس. ومع ضمور النباتات تصل الأصوات إلى أبعد: وهكذا يحدث لي أن أسمع صوت جرار ثم أراه يعبر على الطريق على بعد

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

كيلومترين من الوادي. ومع صرخات المناشر الكهربائية البعيدة جدًّا تتحد أصوات جامعات البطاطس، منحنيات في البساتين لنزع الثمرة من الأرض. في كل مساء، من أعلى، كنت أسمع: لا كي! لا كي! وأحيانًا، ولكن لم يكُن صوت الجرس يجيب دائمًا على النداء.

هل رأيت لا كي؟ أتى جابريله ليسألني. لا، لم أره. كان قد اختفى منذ يوم ولم نعرف ماذا حدث له حتى اليوم التالي. ثم اتصلوا من ملجأ الكلاب، وقالوا إنهم عثروا عليه في حافلة في طريق عودتها من المدرسة، بعد أن نزل كل الأولاد، ولم يكُن هناك سوى السائق، على بعد ثلاثين كيلومترًا من مكاننا. لم يكُن لدى أحد أي فكرة عن كيف صعد إلى هناك، ولكن من المؤكّد أن اكتشافاته دفعته بشدة إلى هناك. وسرعان ما اكتشفنا، أنه بالإضافة إلى مدقات الجبال، فهو ضعيف أيضًا تجاه الطرق الأسفلتية، نظرًا إلى أنه كان يقفز على متن أي وسيلة مواصلات بمجرد أن يراها مفتوحة أمامه. بمجرد أن تعلم أن يفعل ذلك، بدأت ملاجئ الكلاب في المنطقة تتقاسم رقم هاتف جابريله، وبالإضافة إلى المكالمات، بدأت تصل إليه أيضًا المخالفات.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

إنه كلب «Beat»(23)، قلت أنا.

ماذا؟ سألني هو، الذي يعرف القليل عن الأدب. كان غاضبًا وكان الأمر مفهومًا: فقد ابتاع لا كي ليعمل، ولكنه الآن يدفع ثمن تجاوزاته. وكإجراء عقابي، صارت السلسلة عادة. كنت أمر من هناك، وأراه مقيدًا ويدور حول نفسه، كان لدي الإذن أن أحرره لآخذه معي ليتمشى، ولكن بعد الاحتفالات، والجري، ومطاردة المارموط، كان تقييده من جديد بالطوق في عنقه يشعرني بالذنب أكثر بكثير.

هل تعرف شخصًا يريد كلبًا؟ بدأ جابريله يسألني، بنوع من الانفصال يخفي حزنًا. فقد تعلق به، ولكن ليس بالكامل. أعتقد أن شخصيته تلك المتشردة تعجبه. لا كي، لا كي، يبدو كأنه يفكر، يمكننا أن نصبح صديقين أنا وأنت، وهو يمنحه تربيتات أخيرة حزينة. ومن زاويته كان «لوبو» يراقب المشهد وأنفه في الأرض، وأسنانه نصف مكشوفة، ويظهر ضيقه الذي يحتويه بصعوبة بزمجرة ضعيفة وخاصّة.

...

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لم أكن أريد كلبًا، بل لم أرد كلبًا قط. أولًا، سيمنعني من السفر. ثانيًا، سيعطلني عن الكتابة. ثالثًا ورابعًا وخامسًا، سينزع عني حريتي بطرق لم يكن يمكنني حتى تخيلها. ثم، كيف سأتحمل أن أدعى «سيد»؟ وهكذا عندما عبرت ومعي لا كي عتبة الكوخ، كنت أشعر بالقلق أكثر من السرور. أفكر في تحضير الغذاء، طريقتي لأكّون صداقات مع أهل الجبل: بدأت بإعداد المعكرونة لاثنين، ولكن بعد ذلك أخذ هو نصيبه ونصيبي فقد كان يتضور جوعًا. عندما انتهى من التهام هذا، استولى على الركن الظل أسفل المائدة. عندئذٍ قطعت لنفسي قطعة خبز وجبن، وجلست إلى المائدة وفتحت كشكولي وأنا أتناول شيئًا ما. مع لا كي كان لهذه المتعة عمر قصير. اشتم رائحة جبن التوما، نهض، وأتى ليضع لي خطمه على قدمي، وأغرق سروالي باللعاب. أخذ بعض الفتات وشيئًا أكثر من هذا. لم أكد أضع القلم على الورقة إلا وهو قد شعر بالضجر من البقاء هناك بأسفل وذهب أمام باب المنزل. كان يحدق إلى مقبضه، وينظر إليّ، يدور حول نفسه، ثم يعود أسفل المائدة ليدعوني، ويعود من جديد أمام الباب. وكان الجرس المعلق في رقبته هو صوت ضجره.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لا بد أن نذهب وألا نتوقف حتى نصل، كان نيل يقول لجاك(24)، ولا كي يقول لي.

أين نذهب؟ نسألهم نحن.

لا أعرف، ولكن لا بد أن نذهب.

فكرت في أن ذلك الجرس لم يعد يفيد في شيء، عندئذ نزعته عنه، هو والطوق الجلد الذي كان موضوعًا فيه، وعلقت الطوق على مسمار يبرز من الجدار. وقلت له: هذه نهاية مهنتك كراعٍ يا لا كي. كنت أعتقد أنه سيكون سعيدًا بأنه لن يرتدي مرة أخرى ذلك الشيء الذي يذكره بالسجن، ولكنه لم يكُن يبالي كثيرًا بالرموز، كان يهتم فقط بالحركة. وهكذا في النهاية فتحت الباب وذهبنا لنتمشى.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

(23) Beat generation : مجموعة من الكتّاب والجيل الذي تأثر بكتاباتهم في الولايات المتحدة، ظهر في عقد الخمسينيات من القرن العشرين وتمحورت ثقافتهم على تجريب كل ما هو جديد.

(24) يشير هنا إلى أغنية معروفة لفريق كينج كريمسون King Crimson البريطاني: Neal and Jack and me

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

موكب الأبقار

أتى السبت الأخير من سبتمبر، ومن الهواء المثلج حولي شعرت بأن أيامي هنا باتت قليلة. عند صعودي من طريق البغال قابلت صفًّا طويلًا من الأبقار البطيئة، والكلاب، والصبية حولهم ينتبهون ألا تشرد أي منها، ورجل في بداية الموكب وزوجته في نهايته تقود جرارًا تحمل قاطرته كثيرًا من الأشياء. كان موكب الأبقار(25). ينزل الرعاة من المراعي الجبلية، ليس بسبب البرد ولكن لأن العشب انتهى. كانوا ينزلون بهدوء، دون الحاجة إلى نخز الماشية أو إلى أن يتحدثوا فيما بينهم، ولم أستطع أن أميز إذا كان ما أقرؤه على وجوههم تعبًا أم حزنًا. صافحني أحدهم وسألني: هل هذا كلبك؟ أجبت محرجًا: يمكث معي. حيث لم أكن قادرًا على التفكير ولا القول إن لا كي «ملكي».

في أعلى قمنا بدورة حول المراعي المغلقة، حيث كانت الأجراس تدق منذ فترة وجيزة. أخذ لا كي يتشمم هنا وهناك الحياة التي رحلت لتوها: الأبواب والنوافذ مغلقة بالمزاليج، الزرائب فارغة. القنوات الصغيرة، التي تجلب المياه من الشلالات لأحواض

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

التروية، وداخل الحظائر، جفت الآن. أحواض الاستحمام صدئة ومقلوبة مكثت لتسترخي في المراعي. في الأرض جف السماد وعلامات عجلات الجرارات، والعمود الذي قُيد إليه الكلب. بدت أشياء تُركت خلف عملية خروج متعجلة، كأن حربًا ما قد اندلعت أو وباء حل على المكان. فقط نباتات القراص كانت مزدهرة، ولكنها في العادة تنمو جيدًا في حالة عدم وجود أحد، فهي علامة على الترك.

•

بالصعود فيما وراء المراعي الأخيرة اجتزت النهر بقفزة في حين في يونيو اضطررت إلى أن أخلع حذائي وجوربي: تحول إلى سلسلة من الآبار فيها أسماك السلمون ساكنة، سجينة، يمكنني الإمساك بها بيدي. مياه البحيرات رصاصية، تقريبًا سوداء. يلحسها لاكي، ويخربشها بأسنانه. شيء ما بداخله يميل إلى الشتاء، يجعله يشعر بحماس باقترابه. أما أنا فقد خُلقت للصيف، وشعرت بارتياح وأنا أجري إلى أسفل وأعود لملامسة العشب.

عندما وصلت إلى جابريله كنت أفكر في صديقي الذي يدفئ نفسه بفنجان القهوة، وزبد المراعي والسكر والنبيذ الأحمر، خليط مقزز جهنمي، اضطررت بعض المرات، وبسبب مسائل الضيافة والكرامة، إلى أن أتجرعه أنا- أيضًا، وتمنيت ألا

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

يحدث هذا من جديد. عثرت عليه أمام الحظيرة، ممسكًا بأوتاد ومطرقة، وكان يعمل في كومة من الحطب أطول منه. نظرًا إلى أن لوبو ولا كي لم يعودا مجبرين على التظاهر بأنهما إخوة، أظهرا على الملأ عداوتهما، أخذا يدوران كل منهما حول الآخر وشعره مستقيمًا، ثم قلب المسن الشاب بركلة، وأوقفه أرضًا وغرس أسنانه في كتفه. عوى لا كي من الألم والفزع. لوبو! صرخ جابريله، وألقى عليه بقطعة حطب، فترك الكلب فريسته، وهكذا هرب لا كي وهو يعرج نحو المنزل، في حين ابتعد لوبو شاعرًا بالإهانة، كأنه شخص استخدم فقط حقوقه. نظرت إلى جابريله وأنا مهتز بعض الشيء من عنف المشهد. كلاب، قال وهو يرفع كتفيه. قريبًا سأعتاد أنا أيضًا هذا.

لا بد أن شجرة اللاركس العجوز نمت ملتوية، ولم تكُن تعرف أنها ستصبح حطبًا سيشتعل: لكسره كانت تلزم ثلاثة أو أربعة أوتاد ومجهود أكثر بكثير من المعتاد. لم يكُن جابريله يمانع في أن يضع المطرقة ويلتقط أنفاسه. عندما سألته إذا كان حزينًا لرؤية الجميع يرحل، تظاهر باللا مبالاة، كأن لن يغير في شيء بقاؤه بمفرده. بالنسبة إليه، فهو لا يفكر في موكب الأبقار على الإطلاق: وأعلن بثقة أن الأمر لم يتعلق سوى بمسألة مؤن، فلو

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

كان المخزن ممتلئًا لقاوم هنا حتى أعياد الميلاد. ولكن كنت ألمح في عينيه، من الطريقة التي تتهربان مني، أن هذا الاستهتار ظاهري، وأن الخريف، في الواقع، يقمعه هو أيضًا.

سأل: ما اليوم، السبت؟ ما رأيك في أن نذهب إلى البلدة لنملأ فمنا؟

أجبته بلا، وأنا أتراجع عن واجباتي كرفيق شراب. كنت أعلم أنني أتسبب له في الإحباط، ولكن المرة الأخيرة التي «ملأنا فيها فمنا»، استغرقني الأمر يومين لأستعيد وعي، وهذه المرة أيضًا يبدو أن الشرب فيها سيكون حزينًا وسيئًا.

عثرت على لا كي على شرفة الكوخ يلعق جراحه. كان لديه ثقب على فخذه ينزف. قلت له: لقد اعتقدت أنك في أمان. الخريف فصل قاسٍ، يجعلنا نحن بدورنا قساة.

Telegram:@mbooks90

في اليوم التالي رحل أيضًا جيراني، وكان يؤسفني هذا، ليس بسبب الرجال الذين لم أستطع قط أن أرتبط بهم، ولكن بسبب الكلاب. سأفتقد صوت الجرس الذي كان يعلن لي عن زياراتها. نظرًا إلى أن «موتزو» كان يصل بخطوة عادية، و«بيلي»

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وهو يهرول، و«لامبو» وهو يركض، فكنت حتى قد تعلمت أن أتعرف عليها من دقات الجرس. ذهبوا دون أي وداع، وأنا فكرت: هكذا أفضل. من المعروف أن الكلاب لا تحب الوداع على الإطلاق، وأنا أيضًا لا أجيد تلك المراسم. انتهى جزء آخر من الصيف، تساقطت أوراقه، وغرب، بالنسبة إلى فصلي أنا، لم يكُن قد بقي منه شيء، وكان يمكنني أن أغلق الباب وأرحل.

•

ولكن حلت محل «موتزو» و«بيلي» و«لامبو» كلاب أخرى، ولم تأت تلك وهي تعلن عن نفسها بأصوات الأجراس. في صباح أحد أيام أكتوبر استيقظت على نباحها. وقفت عند الباب، ممسكًا بلاكي حتى لا يرحل ويتشاجر، ورأيت مجموعة من كلاب البوينتر تجري للأمام وللخلف في الغابة، مطيعة لنداء اثنين لا أعرفهما. كان كل منهما يرتدي نظارة معظمة على رقبته، بدلة التمويه، وبندقية بحزام جلدي على كتفه. لم أفكر قط، في أنه بين يوم وآخر سيبدأ موسم الصيد. تجري الكلاب بطريقة هستيرية، منفعلة بسبب روائح الفرائس: ومنذ تلك المرة أصبح هذا المشهد يتكرر في كل صباح، وتبدأ طلقات البنادق في الدوي منذ ساعات الفجر. عندئذٍ يختبئ لاكي

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أسفل الفراش، وأنا أصلي لإله الغابة أن تذهب الطلقات هباءً. كنت أفكر في الماعز والشامواه والأيائل المرغوب فيها. في أثناء الأسبوع، في وقت الغروب، يصبح الميدان الصغير في نهاية الطريق ملتقى الصيادين: تخرج الأيائل في تلك الساعة لتأكل على هامش المراعي، حيث يكون العشب المُسمد أكثر من الموجود في المناطق الخلاء. لمدة ستة أيام يدرس الصيادون بنظاراتهم المعظمة تحركاتها ومواعيدها، يحصونها ويقيسونها، بل ويختارونها: يبدو كأنهم يقولون: هذا لي، سآخذه أنا، وحذارِ لمن يلمسه. لم تكُن الأيائل تعرف أن اليوم السابع سيكون دمويًّا، كان عليها أن تظلّ مختبئة يوم الأحد وتقدس أيام العطلات.

يمر صياد مسن من أمام الكوخ في كل صباح. يحوم في الغابة هناك، ربما لأنه لم يكُن يستطيع أن يسير أكثر من ذلك. في أحد الأيام سمعت طلقتين وبعد ذلك بقليل رأيته يرحل بأرنب بري معلق بجانبه من مخالبه الخلفية، وأذناه الرماديتان الطويلتان متدليتان حتى الأرض. بداخلي كنت متأكّدًا من أنها صديقتي. تلك الأرنبة التي لمحت آثارها في الربيع، عندما كنت أعاني من الوحدة وكان هذا اللقاء ثمينًا للغاية، هي نفسها التي كانت في

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

كل مساء تراقبني من بعيد، ومنحتني الأمل أنه، مع الاعتياد، إن آجلًا أم عاجلًا ستجد الشجاعة لتقترب مني. الآن أشعر بالخجل من ذلك الترويض الصبور، فقد كان الفخ الذي أعددته لها: كيف كان للأرنبة أن تميز، بيني وبين الرجل ذي البندقية؟ بدا لي موتها جريمة لا يمكن غفرانها، وكرهت ذلك المسن من كل قلبي.

(25) Desarpa: موكب تقليدي في نهاية فصل الصيف احتفالًا بانتهاء موسم الرعي الجبلي.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

في اللون الأبيض

ثم بالأمس، بعد الظهيرة، بدأ هطول الثلج مرة أخرى.

ثلج جاف، كالدقيق، شتوي، تجعله الرياح يلف في كل مكان، ويصل ليستقر على عتبة البيت، وعلى الحطب الموضوع بجوار الجدار.

ولكن ما هذا، شهر أكتوبر؟ فكرت.

لم تتمكن أشجار اللاركس بعد من أن تتحرر من الإبر. كانت إبرها تنحني إلى أسفل ومن حين إلى آخر كانت تتكسر في صخب. لم أعد أسمع عويل الأيائل ولا طلقات الصيادين.

في المساء جلست بالقرب من النافذة، أقرأ وأنظر إلى الخارج. الثلج المضيء بأضواء المنازل. كنت أقرأ كتابًا لسيلفين تيسون(26)، في غابات سيبريا: بحيرة باجكال، السيغار والفودكا، أفكار أخ بعيد.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

كانت الثلوج ما زالت تتساقط، ووضعت العشاء للتو، عندما انتهت أنبوبة الغاز. تحولت الشعلة الزرقاء إلى صفراء، ارتعشت ثم انطفأت. وداعًا يا حساء، فكرت.

غلفت أربع ثمرات بطاطس في ورق ألومنيوم، ووضعتها بين أسياخ المدفأة، وبعد ساعة أكلتها مقرمشة ومحروقة بعض الشيء، بعض أن غمستها في الملح والنبيذ الأحمر.

***

لا بد أن الساعة كانت التاسعة عندما هجرني النور أيضًا. انطفأ المصباح المعلق فوق المائدة. توقفت أغنية الراديو في منتصفها. توقفت الثلاجة عن إصدار أزيزها فجأة.

غرق المنزل كله في الظلام والصمت، فيما عدا صوت طرقعة النيران والفأر الذي منذ يومين يتحرك في أثاث المطبخ. لم يكُن الثلج في الخارج يتسبب في أي ضوضاء.

استسلمت، ماذا يمكنني أن أفعل؟

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

جذبت الأريكة إلى أسفل، وأعددت الفراش على ضوء المدفأة، وملأتها جيدًا بالحطب وذهبت لأنام. كان الاستماع إلى صوتها وهي تطرقع في الظلام صحبة جميلة.

بعد دقيقة شعرت بكلب يتحرك من مكانه أسفل المائدة لينام فوق السرير، وكان يحاول ألا يتسبب في أي صوت، كأنني لن أشعر به. تشعلق في نهاية السرير ووضع قدميه أسفل جسده.

في الليل لا بد أنني حلمت بأنني أكتب قصة عن رجل انتهى كل ما لديه من غاز وضوء وقلم وحياته تحولت فجأة إلى أدنى الإمكانيات، في حين كانت السماء فوقه، في الخارج، وحوله، تهطل ثلجًا.

في هذا الصباح كان العالَم صفحة بيضاء.

السماء صافية، بذلك اللون الأزرق الذي ازداد كثافة في التضاد مع الغابات المغطاة بالثلج.

قمت بجولة لأرى كم تساقط منه، وبمجرد أن خرجت من باب المنزل غرست حتى ركبتَي.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

عثر لا كي على عنصره المفضل، وسبقني وهو يقفز ويغطس ويملأ به فمه، ويلف في الثلج الطازج. «ربما كنتَ كلب تزلج»، قلت له، «لست سارق سيارات بل أنت باحث عن الذهب».

كانت أشجار اللاركس تتحرر بلا أي مقدمات بمجرد شروق الشمس، كانت تتخلص من الانهيالات وأسفلها كانت خضراء وصفراء.

إذا كانت لديّ آلة تصوير لكنت التقطت صورة رأسية لأنني أحب الأشجار والثلوج والسماء. يوجد نوع من الجلال في شجرة لاركس مغطاة بالثلج في مواجهة الصباح. فكرت في بافيزي(27): بالنسبة إليّ أعتقد أن شجرةً ما وصخرة ظلّلتا السماء، هما إلهان، منذ البدء.

في المنزل نظفت الحطب قليلًا من الجليد، وأشعلت النيران، تذكرت أنني لم يعد لدي غاز. ولم يعد النور من جديد. عندئذٍ أعددت القهوة على المدفأة، قهوة على الطريقة التركية، أجلَّ أسودّ قاع الحلة الصغيرة تمامًا.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

عندما جلست إلى المائدة كان كشكولي هناك ينتظرني: متوقفًا عند الأمس، عند سنوات مضت، تمامًا عند ذلك السطر، على النقطة المحددة التي فيها تركته قبل أن يبدأ الثلج في الهطول.

(26) Sylvain Tesson: كاتب فرنسي ورحال، عبر جبل الهيمالايا على قدميه في رحلة استمرت خمسة أشهر.

(27) Cesare Pavese: شاعر وروائي وناقد فني ومترجم إيطالي، ويعد من أهم الأدباء الإيطاليين في القرن العشرين.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الرشفة الأخيرة

«النهاية مهمَّة في كل الأشياء» يقول الهاغاكوري (28). قضيت الأيام الأخيرة هناك فوق أفكر في هذا، أريد أن تنتهي نهاية جيدة. في الصباح يوقظني لا كي وهو يلعق وجهي ونذهب معاً لنرى ماذا عمل الجليد، أحطم الرواسب الطويلة من الثلج التي تتدلى من النافورة، أقبض عليها بيدي حتى لا تلتصق بجلدي، ثم أتركها لتطفو وتذوب بين إبر شجرة اللاركس. إذا كانت الليلة صافية، يشير مقياس الحرارة الخارجي إلى خمس درجات. في المنزل أشعل المدفأة، وأعد القهوة، وأعيد بناء مسيرة الفأر الذي يسكن معي.. في الليل اكتشف منضدة المطبخ، الأفران والحوض، قام بجولة على رف المعكرونة والأرز، حفر بين ألواح الأرضية ليخرج منها فتات الخبز. لم أعد أعلم ماذا يمكنني أن أفعل معه: في البداية كان خجولاً، يخرج فقط في الليل الحالك، ثم فهم أنه يعيش في منزل صاحبه متسامح، وأخذ يشعر بمزيد من الثقة: الآن أصبحت أجده حولي حتى وأنا أطبخ. لا يمكن أن يستمر الوضع بهذه الطريقة، قلت لنفسي، وأنا أنظف الكوخ من آثار مروره. كان عليّ أن أتمرد على الجبلي الخشن

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بداخلي، وأمسك بالمقشة وأطرده. كسرت العصا منذ برهة، وأنا أعبر أحد الشلالات. انحشر الطرف المعدني بين حجرين كبيرين، استجمعت قوتي لأنزعه، فكسر. عندئذ قررت ألا أبحث عن عصا جديدة، فلن تفيدني في كل الأحوال. في المقابل احتفظت بقطع العصا القديمة، خشب الصنوبر المحفور بعلامة ماركة أوبينال، الذي جففته الشمس، وخدشه حصى ركام المنحدرات ولمعه العرق، رفيق غزوات صيف طويل، انتهى في مسيرة الأمسية الأخيرة. وبعد هذا ربما سأتوقف عن التعلق بالفئران والعصي والأحذية التي تمزقت الآن حول قدمي.

استمر غابريلي في التأكيد بأنه سينزل عندما ينتهي النبيذ. كان مسليًا جدًّا وتعلمت أن أتعرف على مزحاته. فرغت دماجانات النبيذ منذ فترة، وانحدر بنا الحال لنتشتري كرتون النبيذ من السوبر ماركت. والحقيقة أنه، دون أن يستشير أيٍّ منا الآخر، قررنا كلنا الرحيل في نهاية شهر أكتوبر، جابريله، ريميجو وأنا. ووصل الثلج ذلك الحقيقي في هذه المرة. هكذا عثر أحدنا على حجرة في البلدة، وأخذ يفرغها من الأثاث القديم ليضع بداخلها مدفأة وسريرًا نقالًا ومائدة، والآخر انتقل إلى منزله الشتوي، حتى إن لم يكُن يطلق على ذلك المنزل كلمة «منزل»، وأنا

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

كنت سأعود إلى المدينة لأنظر إلى الجبال من النافذة، في حين أنا مصطف بسيارتي على كوبري في حي غيزولفا(29). إلا أنني كان لدي مشروع أخير لأنفذه. منذ فترة طويلة أريد أن أمضي أمسية معهما هما الاثنين، اللذين كانا يتهربان من دعوتي بدقة. لسبب ما، وعلى الرغم من معرفة أحدهما للآخر، لم يكونا قط صديقين، وكان هذا يبدو لي شيئًا تعسًا جدًا نظرًا إلى أنني كنت أحبهما هما الاثنين جدًّا. في أحد أيام أكتوبر واجهت الأمر بشجاعة وقلت لهما: اسمعا، سأطهو هذا المساء، عليكما إحضار الشراب ولا توجد أي أعذار، اعتبراها هدية ستقدمانها إلي. وبالفعل فعلا ذلك. ببعض من الخجل وزجاجة نبيذ في يد كل منهما، والحلة الجيدة وجدتهما يقفان أمام بابي مع حلول الظلام. كتب ثورو(30): كانت توجد في منزلي ثلاثة مقاعد، المقعد الأول للوحدة، والثاني للصداقة والثالث للمجتمع. واستطعت أنا أيضًا اختبار هذا، مجتمعنا الصغير الجبلي. إذا كنت قد أنجزت أشياء هناك فوق، إذا كان عليّ أن أختار منها شيئًا ما أفتخر به، سيكون هو أنني أجلست صديقيّ إلى المائدة نفسها، وأن أكون بخير بينهما قبل أن أرحل.

قضيت اليوم الأخير في إعداد الكوخ لاستقبال الشتاء. وفي

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

البستان البري ألقيت برماد المدفأة. لن يكون أفضل شيء كسماد، ولكن بدا لي أنه الشيء الأصح عمله: كأنني أخذت شجرة اللاركس التي سقطت في الربيع لأعيدها إلى الجبل. غطيت ببعض ألواح الأرض الحفرة التي كنت فيها أشعل النيران في العراء، وجمعت الحطب المتبقي أسفل الشرفة. أعدت المنشار والمنجل، الجاروف والمِدمة إلى داخل المنزل، ثم غسلت يدي في النافورة المثلجة وألقيت بنظرة على المكان حولي. عاد المكان من جديد مثلما عثرت عليه في اليوم الأول، فقط لا كي لم يكُن موجوداً في ذلك اليوم، كان ينظر إليّ وهو لا يفهم، سألته: هل أنت مستعد للمدينة أيها الكلب المحظوظ؟ لم يكُن في حياته كلها قد رأى مقوداً من قبل ولا رصيفاً. لا بد أن نحب بعضنا كثيراً جدّاً، أنا وأنت. قلت له. ربما ستعلمني أن أهرب على العربة الأولى التي تمر.

في ساعة الغداء جاء جابريله وقال: لست جيداً جدّاً في مسألة الوداع. أجبته: ولا أنا. إذاً سلام، قال هو. لم تعد لديه الأكواخ، الآن يعمل بالفعل في مصاعد المتزلجين. كانوا ينزعون المقاعد الصغيرة، ويزيتون التروس، ويربطون المسامير، تحسباً لموسم التزلج. ابتعد بجراره ومعه «لوبو» الذي كان

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

يعض العجلات الخلفية كما يفعل دائمًا وهو ينبح، ويجري على الطريق، كأنه يقول له، توقف، إلى أين أنت ذاهب؟ عد إلى هنا. ولكن ريميجو طردني من المنزل عندما ذهبت لأصافحه، تظاهر بأن لديه أشياء مهمّة عليه إنجازها، وبعد هذا بقليل كتب لي رسالة ليتأسف، لأنه كان حزينًا ولم يكُن قادرًا على أن يعانقني. فهمته هو أيضًا جيدًا.

Telegram:@mbooks90

لم أكن قد ذهبت إلى الأعلى منذ فترة، في الصباح كان الجبل مغطى بطبقة من الثلج، وهكذا استفدت من تلك الظهيرة المشمسة، انطلقت مع لاكي مباشرةً بعد الغداء، صعدنا بسرعة لأنني كنت أعرف أنه خلال ساعات قليلة سيحل الظلام. ثم كان الأمر كأنني أسجل شريطًا لآخذه معي. الوصول إلى القمة الوعرة واكتشاف مرة أخرى، بعد شهور عديدة، منحدر مجهول، واجتياز مدق لم أتخذه قط. النزول من الجهة الأخرى حتى المرعى الذي حرقه الجليد. التجسس من النافذة على ما بداخل مرعى جبلي مغلق: المائدة، المقاعد، الأطباق المتراكمة على الرف، برطمانات المربى، كأن أحدهم خرج للتو، ونظم المكان قليلًا قبل الخروج. ثم دراسة الجبل واختيار خط جميل، جميل لمن يعرف الجمال في الذهاب حيث لا توجد مدقات،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ويعبر إلى أعلى، على طرق الشامواه. اجتياز المحور المهجورة، عبور التراكمات الحجرية صعوداً من كتلة حجرية إلى أخرى بين الأطلال العارية. غسيل اليدين والوجه في الشلال. تذوق توت أكتوبر، والنباتات لا أوراق لديها ولكنها ما تزال تحمل ثمارها التي غطاها جليد الليل، ذابلة، قاتمة اليوم، ولكنها حلوة المذاق كالزبيب.

كنت أفعل الشيء نفسه وأنا صبي، جولة أخيرة لأصافح الجبل. أكتب بعض الأوراق وأخبئها في فروق الصخور، وشقوق لحي الأشجار، وهكذا تبقى كلماتي هناك حتى بعد رحيلي.

«الآن لا بد أن نرحل»، قلت للاكي. حان وقت العودة إلى أسفل. وكنت أعلم بالفعل كل الأحلام التي سأحلم بها في فصل الشتاء.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

(28) : الكتاب الذي حوى النظام الأخلاقي لحياة الساموراي، ويعني عنوان الكتاب «في ظلال أوراق الأشجار». Hagakuri

(29) Ghisolfa

(30) Thoreau

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

النصوص المذكورة في الكتاب مقتبسة من الكتب التالية:

Fabrizio De André, Non al denaro non all’amore né al cielo (Produttori Associati)

Daniel Defoe, Robinson Crusoe (Garzanti)

Jon Krakauer, Nelle terre estreme (Corbaccio)

Primo Levi, Il sistema periodico (Einaudi)

Cesare Pavese, Dialoghi con Leucò (Einaudi)

Antonia Pozzi, Parole (Garzanti)

Élisée Reclus, Storia di una montagna (Tararà)

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

.Mario Rigoni Stern, Le vite dell'altipiano

Racconti di uomini, boschi e animali (Einaudi)

Henry David Thoreau, Walden (Einaudi)

Sylvain Tesson, Nelle foreste siberiane (Sellerio)

Tsunemoto Yamamoto, Hagakure (Mondadori)

Telegram:@mbooks90

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

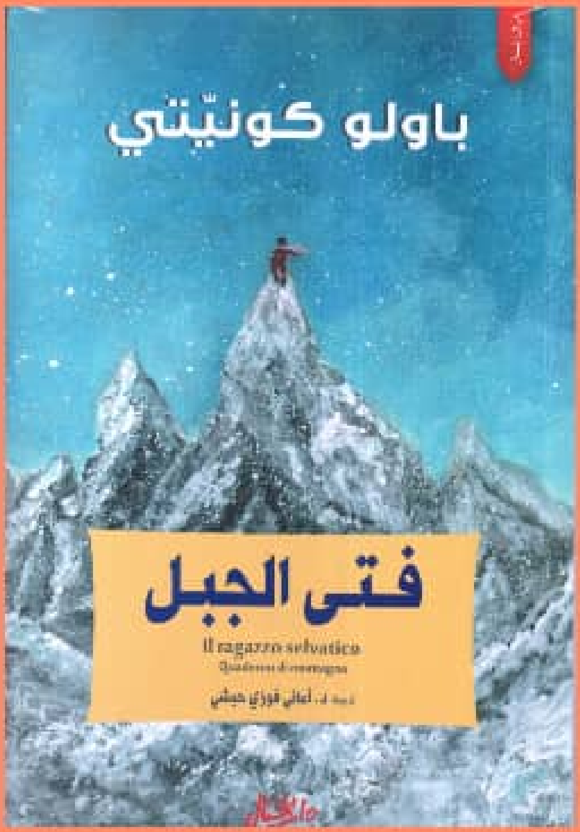

تم الرفع بواسطة: Akko (:

Telegram:@mbooks90

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner